شبهات مزعومة حول
القرآن الكريم
وردها

تأليف

محمد الصادق قمحاوي
المفتش بالأزهر
وعضو لجنة مراجعة المصاحف
والأستاذ المساعد بكلية القرآن الكريم
بالمدينة المنورة

الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله حمداً به نستأهل غفرانه . ونستمنح عطفه ورضوانه . ونصلى أفضل الصلاة وأتمها على أفضل الخلق وأكملهم من بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة . وجاهد فى الله حق جهاده ، القائل (تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها وفى رواية (على البيضاء) لا يزيغ عنها إلا هالك) رواه الترمذى والقائل (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى) رواه الترمذى عليـــه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الهداة البررة الذين رفعوا من بعده راية الإسلام فشيدوا صروح مجده وطوفوا به فى الأنام نافذ السلطان رفيع المكان . فدانت لهم الأمم وخضعت لسلطانهم الرقاب وكان فضل الله عليهم عظيما . أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

أما بعد :

فاعلم أن للقرآن الكريم أعداء ألداء من يوم نزوله وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يلصقون به التهم ويوردون عليه الشبهات وذلك حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق : وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يحفظ كتابه من تهم الملحدين المبطلين ومن شبهات المعوقين الجاحدين فقيض له فى كل زمان ومكان جنوداً أقوياء مخلصين : وعلماء أتقياء صالحين : يلتفون حول موائده يغترفون من بحور فيوضاته ، ويدافعون عن حياض ساحاته ويذبون عن جلال قداسته أباطيل المغرضين وكيد

الخائنين ، وذلك تحقيقاً لوعده تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)
هذا ولما شرفني الله عز وجل بخدمة كتابه في منهج حياتي : وشغلني به
حفظا وأداء . وتعلما وتعليما . وزادني تشريفاً أن قمت بتدريسه وتدريس
علومه بالمدينة المنورة في كلية القرآن بالجامعة الإسلامية :

وقد رأى بعض المسئولين في تلك الجامعة من القائمين عليها: أن أضع
رسالة في بيان الشبهات المزعومة التي أثارها أعداء الدين من الزنادقة
والملحدين ثم نردها وندحضها بالدليل القاطع والبرهان الساطع : فقمت
من فوري مستعيناً بالله عز وجل في تلبية طلبهم وإجابة رغبتهم ورجوت
منه وحده العون والتوفيق وأن يسدد خطاي ويحقق غرضي في إزالة
تلك الشبهات ومحو هذه الأباطيل معتمداً في ذلك قول أفاضل العلماء الذين
وفقهم الله فأبلوا بلاء حسناً في هذا المضمار وفي جمع هذه المعلومات
المتعلقة بهذا الموضوع ، على أنني لا أدعي أني ابتكرت وأنشأت ولكن
قرأت وفهمت فكتبت ورتبت وأحسنت العرض إذا كنت قد وفقت .
وسميت هذه الرسالة (شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها)
وقد ضمنتها مقدمة تشتمل على أقسام ثلاثة .

١ ـ القرآن الكريم أنزل خاتمة للكتب الإلهية السابقة ومهيمناً عليها
ومصدقاً لها .

٢ ـ القرآن الكريم . أعظم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم والسبب
في كونه معجزة بيانية علمية ثم ذكر عدد من معجزاته الكونية وطرف
من إعجاز القرآن الكريم .

٣ ـ دفاع علماء الإسلام عن حياض القرآن وردهم على تلك الشبهات
وتطور تآليفهم في ذلك .

وعلى أبواب ثلاثة

١ ـ الأول فى مصدر القرآن والشبهات التى أثيرت فيه .

٢ ـ الثانى فى نظم القرآن وأسلوبه ومكيه ومدنيه وما أورد فيه من تهم .

٣ ـ الثالث حول ثبوت نص القرآن الكريم وكتابة مصاحفه وإنكار الأحرف السبعة وما أثير حولها من شبهات .

ثم خاتمة لهذه الرسالة . والله أسأل أن يجنبنى الزلل فى القول والعمل ويجعل عملى خالصاً لوجهه الكريم إنه سميع الدعاء مجيب النداء .

فأقول وبالله التوفيق ؟

محمد الصادق قمحاوى
الأستاذ المساعد بالكلية

(تعريف القرآن الكريم)

القرآن فى اللغة : مصدر قرأ يقال قرأ يقرأ قراءة وقرآناً على وزن الغفران والشكران فهو بمعنى القراءة . ثم نقل فى عرف الشارع من هذا المعنى وهو المصدر وجعل علماً على مقروء معين وهو كتاب الله الكريم وذلك من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول ودليل كونه فى اللغة مصدراً بمعنى القراءة فى قوله تعالى (إن علينا جمعه وقرآنه : فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) .

وأما معناه فى اصطلاح العلماء : فهو كلام الله القديم النوعى المعجز بلفظه ومعناه المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل المتحدى بأقصر سورة منه المتعبد بتلاوته المنقول إلينا بطريق التواتر .

فالمراد بالقرآن هنا هو اللفظ المعجز المقروء : لا الصفة القديمة صفة الكلام ولا الكلمات النفسية .

إذا عرفت ذلك فاعلم أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى ختم الله به جميع الكتب السماوية فقد اشتمل على كل ما فيها من أصول العقائد والعبادات والمعاملات .

وإن اختلف عنها فى فروع التشريع وما فيها ونظم وقوانين وحكم وأمثال وقصص وآداب بل زاد عليها بما هو أفضل وأكثر فى الفائدة وأيسر وأسهل فى العمل فاقرأ إن شئت قول الله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) : الآية(١) وقوله (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين

---

(١) آية (١٣) من سورة الشورى .

يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) الآية(١) وذلك بأسلوب أرقى وأبلغ وأسمى وأنفع وأعم وأشمل وذلك مع التحدى جميع العرب بل للثقلين جميعاً على أن يأتوا بكلام مثله فعجزوا ولم يستطيعوا : قال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)(٢) فقد تحداهم وتدرج معهم فى التحدى فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا فطلب منهم أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه فقال (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين)(٣) ثم تبين عجزهم عن ذلك بقوله عز من قائل (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)(٤) ثم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بين هذه المزية للقرآن الكريم بقوله فى الحديث الشريف .

فعن على رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ألا إنها ستكون فتن كقطع الليل المظلم فقلت ما المخرج منها يارسول الله قال كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ ماقبلكم وخبر مابعدكم وحكم مابينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تنقضى عجائبه ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد والذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحد من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم رواه الترمذى وقال . . . قال بعض المستشرقين فى وصف القرآن الكريم هو الدكتور (موريس المستشرق الفرنسى قال إنه أى القرآن ندوة علمية للعلماء ومعجم لغة للغويين ومعلم

---

(١) آية (٤٨) من سورة المائدة . (٢) آية (٨٨) من سورة الإسراء .
(٣) آية (٢٣) من سورة البقرة . (٤) آية (٢٤) من سورة البقرة .

نحو لمن أراد تقويم لسانه ودائرة معارف للشرائع والقوانين وكل كتاب سماوى جاء قبله لا يساوى أدنى سورة من سوره فى حسن المعانى وانسجام الألفاظ لذلك نرى رجال الطبقة الراقية فى الأمة الإسلامية يزدادون تمسكا بهذا الكتاب يقتبسون لآياته يزينون بها كلامهم ويبنون عليها أراءهم كلما ازدادوا رفعة فى القدر ونباهة فى الفكر ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، وقد جعل الله عز وجل القرآن الكريم ختاما لكتبه السماوية كما جعل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ختاما لجميع الأنبياء والمرسلين قال تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)(١) وقد أنزل الله القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم لثلاثة مقاصد رئيسية المقصد الأول أن يكون هداية للثقلين ، والثانى أن يكون المعجزة العظمى لتأييد نبيه صلى الله عليه وسلم ، والثالث أن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس فأما كونه هداية للثقلين فلأنه يمتاز بأنه هداية عامة وتامة وواضحة . فعمومها لأنها تشمل الإنس والجن فى كل عصر ومصر وفى كل زمان ومكان . قال تعالى (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)(٢) وقال عز وجل (وهـذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها)(٣) الآية ، وقال عز من قائل (قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) (٤) .

وقال سبحانه (وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين: قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق

---

(١) آية (٤٠) من سورة الأحزاب (٢) آية (١٩) من سورة الأنعام

(٣) آية (٩٢) سورة الأنعام (٤) آية (١٥٨) سورة الأعراف

وإلى طريق مستقيم : يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم : ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين)(١) هذا ومن تمام هذه الهداية أنها احتوت على أرق وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله للناس وانتظمت كل ما يحتاج اليه الخلق فى العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها وجمعت بين مصالح البشر فى العاجلة والآجلة : ونظمت علاقة الإنسان بربه وباخوانه وبالكون الذى يعيش فيه ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد فاقرأ إن شئت قوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها)(٢) (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)(٣) .

وقال (يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)(٤) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون)(٥) وقال جلت حكمته (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)(٦).

---

(١) الآيات ٢٩ — ٣٢ من سورة الأحقاف .
(٢) آية (٢١) من سورة الروم (٣) آية (١٧٦) من سورة البقرة
(٤) آية (١٣) من سورة الحجرات (٥) آية (١٧٢) من سورة البقرة
(٦) آية (١٠) من سورة الجمعة .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى دلت على هذا المعنى ، ومن وضوح هذه الهداية أنها تعرض عرضاً رائعاً مؤثراً توفرت فيه جميع وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع بأسلوب فريد معجز فى بلاغته وبيانه . واستدلال رائع بسيط وعميق يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق بالحق وأمثال خلاله تخرج أدق المعقولات .

وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع : وقصص تقوى الايمان وتهـذب النفوس والضمائر . وتصقل الأفكار والعواطف . وتدفع الإنسان إلى التضحية والنهضة وتصور له مستقبل الأبرار والفجار تصويراً يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار فى رابعة النهار إلى غير ذلك من العجب العجاب مما احتواه القرآن الكريم وصدق الله تعالى إذ يقول (مافرطنا فى الكتاب من شىء)(١) فقد هدى الله به الخلق وأرشدهم إلى ما ينفعهم فى دنياهم من تنظيم شئون حياتهم وفى أخراهم من المصير إلى جنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين هذا هو المقصد الأول ، أما المقصد الثانى من نزول القرآن الكريم فهو أن يكون فى فم الدنيا آية شاهدة برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويبقى على جبين الزمان معجزة عظمى ودلالة خالدة تنطق بالهدى ودين الحق ظاهراً على كل الأديان ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون وقد اقتضت حكمة الله أن يؤيد رسله بآيات بينات ومعجزات تخرق العادات لكل رسول بما ظهر فى زمانه واشتهر فأيد موسى بالعصا التى كانت تظهر منها العجائب وذلك فى زمن بلغ فيـه فن السحر ذروته وأيد عيسى بابراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى باذن الله فى زمن وصل فيه الطب أقصاه وأيد رسوله محمدا بالقرآن فى زمن بلغت فيه اللغة العربية والفصاحة مبلغا

---

(١) آية (٣٨) من سورة الأنعام .

لا يدانى ومعجزات نبوته صلى الله عليه وسلم ودلالات رسالته أكثر من أن تحصى ولكن أعظمها قدراً وأخلدها ذكراً وأجلها نفعاً هى معجزة القرآن الكريم فقد تحدى الله بها أئمة البيان وأساطين البلاغة وأعجز بها الخلق أشد الإعجاز : قال جلت حكمته (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) المقصد الثالث من نزول القرآن هو أن يتعبد الله خلقه بتلاوته ويقربهم إليه ويحرهم إلى ساحة قدسه على مجرد ترديد ألفاظه ولو من غير فهم . فإذا ضموا إلى التلاوة فهما ازدادوا أجراً على أجر قال تعالى (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور)(١) .

وروى الترمذى من حديث ابن مسعود : من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف وأخرج من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ يقول الرب سبحانه وتعالى : (من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه) .

وأخرج مسلم من حديث أبى أمامة . اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه وأخرج البيهقى من حديث عائشة . (البيت الذى يقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض) إلى غير ذلك من الآثار والأحاديث الكثيرة الدالة على فضل قراءة القرآن وإن تنوعت أسانيدها .

(١) آية (٢٩) من سورة فاطر .

ثم إن هذه خصوصية امتاز بها القرآن الكريم عن غيره من الكتب السماوية السابقة فلا أجر على مجرد التلاوة لها بل لابد من التفكر والتدبر والعمل بما فيها . وإنما انفرد القرآن الكريم بهذه المزية لحكم سامية وفوائد غالية . منها أن الأجر على مجرد التلاوة عامل مهم من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصوناً من التغيير والتبديل اللذين أصابا غيره كالتوراة والأنجيل : فهذا الأجر العظيم الذى وعده الله من يتلو كتابه العزيز (القرآن) ولو من غير تفهم من شأنه أن يحبب إلى الناس تلاوته ويدفعهم إلى الإكثار منها ويحركهم إلى استظهاره وحفظه ولا ريب أن انتشار القراءة والقراء والحفاظ يجعل القرآن كثير الدوران على الألسنة واضح المعالم فى جميع الأوساط والطبقات عند ذلك لا يجرؤ أحد على تغيير شىء فيه وإلا لقى أشد العنت من عارفيه كما حدث لبعض من حاولوا هذا الإجرام من أعداء الإسلام الملحدين المارقين فباءوا بالخسران والضلال المبين وانقلبوا على أعقابهم خائبين ومنها - أى الفوائد - إيجاد وحدة لغوية للمسلمين تعزز وحدتهم الدينية وتيسر وسائل التفاهم والتعاون فيما بينهم فتقوى بذلك صفوفهم وتعظم شوكتهم وتعلو كلمتهم وتلك سياسة ربانية فطن لها الإسلام على يد هذا النبى الأمى فى عهد قديم من عهود التاريخ ونجحت هذه السياسة نجاحاً باهراً حتى انضوى : انضم تحت اللسان العربى أمم كثيرة مختلفة اللغات ونبغ منها علماء افذاذ سبقوا كثيراً من العرب فى أفذاذ فهم لغة القرآن وعلومه ، ومن خصوصيته استدراج القارىء إلى التدبر والاهتداء بهدى القرآن عن طريق هذا الترغيب المشوق وبواسطة هذا الأسلوب الحكيم فان من يقرأ القرآن فى يومه وهو غافل عن معانيه سيقرؤه فى غده وهو ذاكر لها ومن قرأه فى غده لها أوشك أن يعمل بعد غد بهديها وهكذا ينتقل القارىء من درجة إلى درجة أرقى منها حتى يصل إلى الغاية بعد تلك البداية هكذا قرر العلامة الزرقانى رحمه

الله ويرحم الله ابن عطاء الله السكندرى إذ يقول :

لاتترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور وهذا بغض النظر عن مذهبه وما ذلك على الله بعزيز إلى هذا وغيره مما ذكره علماء من النصوص الدالة على فضل قراءة القرآن هذا من ناحية تلاوته أما من ناحية ما احتوى عليه من العلوم والتشريعات والنظم والقوانين — فالكتاب العزيز هو أصل التشريع الأول والدستور الجامع لخير الدنيا والآخرة والقانون المنظم لعلاقة الإنسان بربه وعلاقته بإخوانه وبالمجتمع الذى يعيش فيه ثم جاءت السنة الشريفة وهى الأصل الثانى لهذا التشريع تشرح القرآن الكريم وتفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص العام فيه وتبين المبهم منه وتظهر أسراره على مر الزمان قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)(١) .

قال السيوطى فى الاتقان إن القرآن يحتاج(٢) إلى السنة ومعنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له ومفصلة لمجملاته لأن فيه كنوزاً تحتاج إلى من يعرف خفاياها فيبرزها ولا يبرزها إلى السنة المطهرة ومن هنا يقول يحيى بن كثير : السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب قاضياً على السنة ومعنى كون السنة قاضية على الكتاب أى مبينة له وموضحة لمجمله ومبرزة لخباياه وليس القرآن مبيناً للسنة ولا قاضياً عليها لأنها بينة بنفسها إذ

---

(١) آية (٤٤) من سورة النحل .

(٢) لماذا لانشرح الاحتياج بأنه للقارىء أى نحن محتاجون فى فهم القرآن إلى السنة الموضحة حتى لانعرض القرآن — ولو فى الظاهر — بأنه محتاج إلى ما يبينه صلى الله عليه وسلم .

لم تصل إلى حد القرآن فى الإعجاز والإيجاز ولأنها شرح له وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح فمثلا قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) جاء فى الآية الأمر بإقامة الصلاة ووجوبها وكذا الزكاة لكن جاء مجملا فى الكيف والكم غير مفصل فتكلفت السنة الشريفة بتفصيل وتبيين هذا الإجمال بقوله صلى الله عليه وسلم فى الكم (خمس صلوات كتبهن الله فى اليوم والليلة)(١) .

وفى الكيف كقوله صلى الله عليه وسلم (صلوا كما رأيتمونى أصلى) أخرجه البخارى وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل إنك رجل أحمق ، أتجد الظهر فى كتاب الله أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ثم قال أتيت هذا فى كتاب الله مفسراً أن كتاب الله أبهم هذا وأن السنة تفسر هذا . وكذا فى الصوم : فقد جاء الأمر به مجملا فى الآية الكريمة قال تعالى (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات)(٢) فلم تبين الآية هذا الصوم لا فى الكم ولا فى الكيف : فوضحته السنة بقول النبى صلى الله عليه وسلم (صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأتموا عدة شعبان ثلاثين يوماً وقوله صلى الله عليه وسلم من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه .

وكذلك فى الحج جاء فى الآية مجملا قال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)(٣) فلم يوضح هل هو فى كل عام أو فى العمر مرة واحدة ولم تبين الآية كذلك معنى الاستطاعة وقد تكلفت السنة بتفصيل ذلك وتوضيحه غاية الإيضاح كقوله صلى الله عليه وسلم فى معنى الحديث الرجل الذى سأله عن الحج أهو فى العمر مرة أم فى كل عام

---

(١) رواه ابو داود والبيهقى وغيرهما (٢) آية (١٨٣) من سورة البقرة
(٣) آية (٩٧) من سورة آل عمران

يا رسول الله ثلاث مرات والرسول يعرض عنه ويقول لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم وكذلك الزكاة جاءت فى الآية بجملة مثل قوله تعالى (وآتوا الزكاة) وقوله (وآتوا حقه يوم حصاده)(١) وقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)(٢) كل ذلك جاء مجملا فجاءت السنة بتوضيح ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم (ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة) وغيره وهكذا كل الأحكام الشرعية والتشريعات الإسلامية جاءت كلها أوجلها فى القرآن الكريم بجملة غير مفصلة وقامت السنة المطهرة بتوضيحها وشرحها وتفصيلها وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وظيفته التبليغ بالبيان والإيضاح قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) أى وأنزلنا إليك القرآن لتبين للناس ما نزل إليهم فى هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد : بقولك وفعلك فالرسول يبين عن الله مراده مما أجمله فى كتابه وفى الأثر .

ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته وفى رواية متكىء على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)(٣) ومعنى قوله لقد أوتيت الكتاب ومثله معه أنى أوتيت من الوحى غير المتلو تبيانا له وتوضيحاً وكل من عند الله عز وجل فالرسول لا ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحى يوحى) ومعنى (يوشك رجل) يدل الحديث على أنه سيأتى قوم يتمسكون بظاهر القرآن فإن فقط كالرافضة والخوارج ويتركون الاستدلال بالسنة المبينة للقرآن فإن فعلوا ذلك فقد ضلوا وأضلوا ، ثم إن بيان السنة للقرآن جاء على وجوه مختلفة (أحدها) بيان المجمل فيه كبيان مواقيت الصلوات الخمس وعدد ركعاتها وكيفية ركوعها وسجودها وغير

---

(١) آية (١٤١) من سورة الأنعام . (٢) آية ١٠٣ من سورة التوبة .
(٣) رواه ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله .

ذلك وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها وأنواعها وبيان مناسك الحج ونحوها مما سبق ذكره قال أحمد بن حنبل (السنة تفسر الكتاب وتبينه) وثانيها بيان معنى لفظ أو تفسيره (كالمغضوب عليهم) باليهود (والضالين بالنصارى) وبيان قوله تعالى (لهم فيها أزواج مطهرة) بأنها مطهرة من الحيض والنفاس والغائط والنخامة والبزاق وكل مستقذر وتفسير قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم(١) بأنهم أشباههم ويقولون حبة فى شعيرة . بدلا من امتثال قوله تعالى (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة(٢) وغير ذلك مما خصص به العام أو قيد به المطلق وهو كثير فى كتب السنة والله أعلم .

القسم الثانى : وهو فى بيان أن القرآن الكريم أعظم معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان السبب فى جعلها معجزة بيانيه علمية ولم تكن معجزة محسوسة كما كانت معجزات الرسل قبله ثم ذكر عدد من معجزات النبى ص الكونية وطرف من إعجاز القرآن الكريم .

فنقول وبالله التوفيق : اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون لكل نبى ورسول أمر خارق للعادة يجريه الله على يد من يدعى النبوة تصديقاً له فى دعوته وتأييداً لرسالته وهذا الأمر هو ما يسميه العلماء بالمعجزة وقد أيد الله أنبياء بنى إسرائل بمعجزات مختلفة فكانت معجزة كل نبى من جنس ما برع فيه قومه — كما أشرنا إلى ذلك من قبل فمعجزة موسى عليه السلام كانت العصا واليد فى زمن بلغ فيه السحر مبلغه ومعجزة عيسى عليه السلام كانت فى زمن بلغ فيه الطب ذروته فأحيا الموتى بإذن الله وأبرأ الأكمة والأبرص بإذن الله ومعجزة داود أن الآن فى يده الحديد يصنع منه الدروع وماشاء من لباس الحرب وآلاته محاريب وتماثيل وجفان

---

(١) آية (٥٩) من سورة البقره (٢) آية (٥٨) من سورة البقرة .

كالجوارب وقدور راسيات ومعجزة سليمان عليه السلام هى أن علمه لغة الطير والدواب وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وسخر الجن له تعمل بين يديه بإذن ربه حيث يشاء وتأتى له بكل مستعص وعسير ، ومعجزة ابراهيم عليه السلام أن جعل النار برداً وسلاماً عليه ، أمامعجزات نبينا وحبينا سيدنا محمدصلى الله عليه وسلم فهى أكثر من أن تحصى أو تعد وهى على نوعين :

النوع الأول المعجزات الكونية المحسوسة كانشقاق القمر وحنين الجزع الذى كان يخطب عليه بعد أن أعد له المنبر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ومسحه على ضرع الشاة الهزيلة فتدر اللبن فيشرب منه العدد الكثير (وتكثير الطعام القليل الذى لا يكفى فرداً واحداً حتى يشبع منه العشرات والمئات وتسبيح الحصى بين يديه ونطق ذراع الشاة المسمومة عندما وضع له فيها السم بمنع الأكل منها والإخبار بالمغيبات كقوله تعالى (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا قل لله المشرق والمغرب) وقوله تعالى إخباراً عن أصحاب الكهف (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) وغير ذلك كثير مما لا تتسع له هذه النبذة القصيرة .

النوع الثانى من المعجزات : المعجزات العلمية البيانية وهى كثيرة كذلك أجلها وأعظمها القرآن الكريم وقد أظهر الله على يد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم تصديقاً لدعوته من المعجزات مالا يفى به العد فهو أكثر الأنبياء آية وأظهرهم برهاناً ، وسنذكر لك فى هذا القسم من الآيات ماتقر به عينك ويزداد به يقينك مما رواه الجم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم وأثبته المحدثون فى صحاحهم .

ولبدأ منها بأرفعها شأناً وأوضحها بياناً وهو القرآن الكريم وإعجازه فاعلم وفقني الله وإياك أن كتاب الله العزيز يحتوى على وجوه من الأعجاز كثيرة ونجملها من ناحية ضبط أقسامها فى أربعة أنواع :

الأول حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب مع أنهم كانوا فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن وقد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم سجية وغريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب يخطبون بدها فى المقامات ويرتجزون به بين الطعن والضرب يقدحون ويترسلون يرفعون ويضعون فيأتون من ذلك بالسحر الحلال يطوقون من الأوصاف ما هو أجمل من سمط اللآلىء فيخدعون الألباب ويذللون الصعاب ويذهبون الإحن ويهيجون الدمن ويبكون الديار ، يصيرون الناقص كاملا ، ويتركون النبيه خاملا . منهم البدوى ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهرى والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى ذو البلاغة البالغة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف فى القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية :

وكلاهما له فى الحجة البلاغة البارعة ، والقوة الدافعة لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم والبلاغة ملك قيادهم والمنطق طوع إرادتهم والأدب الرفيع من صميم سجاياهم قد ملكوا من ذلك كل فنونه ودخلوا من أبوابه ورفعوا صروحاً لبلوغ أسبابه فقالوا فى الخطير والحقير وتفننوا فى الغث والسمين وتقاولوا فى القليل والكثير وتساجلوا فى النظم والنثر فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد : كتاب أحكمت آياته . وفصلت كلماته وبهرت بلاغته وفصاحته على كل مقول ومعقول وتضافر إيجازه وإعجازه، وظهرت حقيقته ومجازه ، فتبارت فى الحسن مطالعه وحوت كل البيان مجامعه وبدائعه واعتدل مع إيجازه حسن نظمه . وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه : والعرب أفسح ما كانوا فى هذا الباب مجالا وأشهر ما كانوا فى الخطابة رجالا وأكثر ما كانوا فى الشعر والسجع ارتجالا وأوسع ما كانوا فى الغريب واللغة مقالا : فيأتى القرآن بلغتهم التى بها يتحاورون فيفحمهم ويتحداهم بقوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)(١) وقوله (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) وبقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) فلم يزل يقرعهم أشد التقريع ويوبخهم أشد التوبيخ ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم ويشتت نظمهم ويذم آلهتهم ويستبيح أرضهم وأموالهم وديارهم وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته أو مقاومته محجمون عن مماثلته . يخادعون أنفسهم بالشغب والتكذيب والاعتزاز بالافتراء بمثل قولهم (إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر)(٢) وقولهم (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون)(٣) وقولهم (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا)(٤) والمباهات والرضا بالدنية كقولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن

---

(١) آية (٣٨) من سورة يونس . (٢) آية (٢٣، ٢٤) من سورة المدثر
(٣) آية (٤) من سورة الفرقان . (٤) آية (٥) من سورة الفرقان .

بيننا وبينك حجاب)(١) وقولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)(٢) والادعاء مع العجز مثل قولهم (لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين)(٣) كيف ذلك وقد قال الله لهم (ولن تفعلوا) فما فعلوا ولا قدروا ، وأما من حاول ذلك من سفلتهم كمسيلمة الكذاب فقد كشف عواره لجميعهم وقد سلبهم الله جميعاً ما ألفوه من فصيح كلامهم فلما سمعه أهل الميز منهم ورأوا أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا من جنس بلاغتهم ولوا عنه مدبرين) فأنت لو تأملت مثلا قول الله تعالى (ولكم في القصاص حياة) .

وقوله (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب)(٤) وقوله (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)(٥) (وقوله مثلا) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين)(٦) وقوله (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)(٧) وأشباهها من الآيات تحقق لك ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلماتها وأن تحت كل لفظة منها جملا كثيرة ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب عندها ماء البيان فلو تأملت

---

(١) آية (٥) من سورة فصلت .
(٢) آية (٢٦) من سورة فصلت .
(٣) آية (٣١) من سورة الأنفال .
(٤) آية (٥١) من سورة سبأ .
(٥) آية (٣٤) من سورة فصلت .
(٦) آية (٤٤) من سورة هود .
(٧) آية (٤٠) من سورة العنكبوت .

فى عجائبه من ربط الكلام بعضه ببعض والتآم سرده وتناسق وجوهه كقصة يوسف مثلا على طولها ونحوها ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها وهكذا تجد كل ذلك فى القرآن من أوله إلى آخره .

الثانى من أنواع أعجاز القرآن :

صور نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب . ومناهج نظمها ونثرها الذى جاء عليه . ووقفت عليه مقاطع آيه - وانتهت إليه فواصل كلماته ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له . فما استطاع أحد مماثلة شىء منه . بل حارت فيه عقولهم وضلت عنه أحلامهم . ولم يهتدوا إلى مثله فى جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر ، والأعجاز بكل واحد من النوعين . يوضح المراد بأسلوب آخر الإيجاز والبلاغة كل واحد منهما نوع إعجاز لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما . إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها .

الثالث من أنواع الأعجاز :

فى الكتاب الكريم (ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات مما لم يكن ولم يقع . فوقع ووجد كما ورد وعلى الوجه الذى أخبر به كقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين)(١) وقوله تعالى عن الروم (ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين)(٢) وقوله (ليظهره على الدين كله) وقد حصل وظهر على كل الأديان وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض

---

(١) آية (٢٧) سورة الفتح . (٢) آية (٤ — ٥) سورة الروم.

كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)(١) وقوله (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)(٢) فكان جميع هذا كما أخبر فغلبت الروم ودخل الناس فى دين الله أفواجا واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم فى وقت من الأوقات من أقصى بلاد الأندلس غرباً إلى أقاصى الهند شرقاً ومن بلاد الأناضول شمالا إلى أقاصى السودان جنوباً ثم إليك قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(٣) فكان القرآن كذلك على حالته التى نزل عليها محفوفاً بعناية الله محفوظاً برعايته لم تمتد إليه يد عابث بتغيير ولا تبديل إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تحقيقاً لوعده سبحانه بحفظ كتابه ، وقوله تعالى (سيهزم الجمع ويولون الدبر)(٤) فقد تحقق ذلك فى غزوة بدر وأما قوله تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم)(٥) فكان ذلك كما أخبر وقد نزلت هذه الآية فى خزاعة وساق القصية ابن إسحاق فى سيرته وأورد فيها النظم الذى أرسلته خزاعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأوله :

يارب إنى ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلدا

وغير ذلك كثير من الآيات البينات : واقرأ إن شئت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيحة تجد فيها ما فيها من كشف أسرار المنافقين واليهود وفضح أستارهم وكذبهم كقوله تعالى (يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك)(٦) وقوله عن اليهود (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) وهكذا والله أعلم .

---

(١) آية (٥٥) سورة النور . (٢) سورة النصر
(٣) آية (٩) سورة الحجر . (٤) آية (٤٥) سورة القمر .
(٥) آية (١٤) سورة التوبة . (٦) آية (١٥٤) سورة آل عمران .

النوع الرابع من إعجاز القرآن :

ما أنبأ به من أخبار الأمم السابقة والقرون البائدة والشرائع الداثرة ونحو ذلك من الأخبار التى كانت لا يعلم منها القصة الواحدة إلا الفذ من أهل الكتاب الذى قطع عمره فى تعلم ذلك ثم يورده عليه السلام على وجهه ويأتى به على نصه كأنه حاضر موجود وقت حصوله فيقر العالم بذلك على صحته وصدقه . وأن مثله لم ينله بدراسة ولا بتعليم . وقد علموا أنه صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بدراسة ولا مجالسة فلم يغب عنهم ولم يجهل بحاله أحد منهم . وكثيراً ما كان يسأله أهل الكتاب عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكراً كقصص الأنبياء . وبدء الخلق وما فى الكتب السابقة مما صدقه فيها العلماء ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها . ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبهم ولا أبدى صحيحاً ولا سقيماً من صحفهم . بعد أن قرعهم وبكتهم بقوله (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)(١) ومما يدل على أن أهل الكتاب يعلمون ما تحداهم فيه الله بقوله (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين)(٢) وقد حتم الله عدم إجابتهم بقوله (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم)(٣) فما سمع عن أحد منهم أنه تمنى الموت ولو بلسانه مع أنهم كانوا أحرص الناس على تكذيبه . ومثل ذلك ما فعله أهل نجران حينما دعاهم الرسول للمباهلة فأبوا ، قال تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل

---

(١) آية (٩٣) سورة آل عمران .
(٢) آية (٩٤) سورة البقرة .
(٣) آية (٩٥) سورة البقرة .

لعنة الله على الكاذبين)[1] فامتنعوا عن ذلك ومما يدل على ذلك الإعجاز وعلى أن هذا القرآن ليس من كلام البشر تلك الروعة التى تلحق قلوب سامعيه. والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورا ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه. وأما المؤمن فلا تزال روعته به قائمة وهيبته إياه مجددة فتلاوته توليه إقبالا وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه له : قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون)[2] وقال عز من قائل (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله)[3] وقال جل وعلا (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله)[4] ومن دلائل إعجازه كذلك كونه آية باقية ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقوله (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[5] وأما سائر معجزات الأنبياء قبله فلم يبق إلا خبرها . وكذلك غير القرآن من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم. أما القرآن فلم يزل إلى وقتنا هذا حجة قاهرة . ومعارضته ممتنعة . فالأعصار والأمصار كلها حافلة بأهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة ، والملحد فيهم كثير والمعاند للشرع متجبر عنيد . فما استطاع أحد منهم الإتيان بشىء يؤثر فى معارضته . ولا ألف كلمتين فى مناقضته ولا قدر فيه على مطعن صحيح . ولا قدح فيه إلا بزند شحيح . بل المأثور عن كل من رام ذلك أن ألقى العجز بيديه والنكوص على

---

(١) آية (٦١) سورة آل عمران .
(٢) آية (٢) سورة الأنفال .
(٣) آية (٢٣) سورة الزمر .
(٤) آية (٢١) سوره الحشر .
(٥) آية (٤٢) سورة فصلت .

عقبة ، وقد اختلف العلماء اختلافاً كبيراً فى وجوه إعجاز القرآن على أن من كتب منهم فى هذا الفن : عدد كثير من أفذاذهم وأتقيائهم فنهم الخطابى . والرمانى والزملكانى والإمام الرازى والجرجانى وابن سراقة والقاضى أبو بكر الباقلانى والسيوطى وغيرهم كثيرون .

ومن هنا يعلم أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى أعجز البشر جميعاً عن أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة من سوره فثبت بذلك كونه معجزاً من جميع نواحيه حينئذ يجب على ذوى البصائر والعقول أن يهتموا بمعرفة وجوه إعجازه ، وهى كثيرة فمن قائل إن التحدى وقع بالكلام الأزلى الذى هو صفة للذات العلية وأن العرب تكلفت فى ذلك ما لا يطاق وبه وقع العجز وهذا الكلام مردود لأن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدى به والصفة القديمة لا يمكن الوقوف عليها فلا يتصور بها تحد ومن قائل إن إعجاز القرآن كان بالصرفة : أى أن الله صرف العرب عن معارضته بسلب عقولهم هذه الطاقة وكان فى مقدورهم لكن عاقهم عن ذلك أمر خارق وهو الصرفة وهذا قول باطل كذلك ، بدليل قوله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)(١) فهذه الآية تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة فى اجتماعهم الذى نصت عليه الآية هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن نفسه فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز إذا قلنا بأن الذى أعجزهم هو الله عز وجل حيث سلبهم القدرة عن الإتيان بمثله . إذاً فالقول بالصرفة قول باطل لأنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً فلا يتضمن فضيلة على غيره . وليس هذا الكلام بأعجب ممن قالوا أن

---

(١) آية (٨٨) سورة الإسراء .

العجز قد وقع من العرب أيام نزول القرآن وأما من بعدهم ففى قدرتهم الإتيان بمثله وكل ذلك كلام باطل وفاسد وقد سبق لك فيما تقدم وفيما يأتى إن شاء الله ما يفيد ذلك البطلان .

وقال آخرون : إن وجه إعجازه ما ورد فيه من النظم العجيب والتأليف والترصيف وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلام العرب ومباين لأساليب خاطباتهم ولهذا لم يمكنهم معارضته ولا الإتيان بمثل سورة منه وإن حذقوا فى البلاغة وقول الشعر وإجادة الخطب وصناعة الرسائل فكل ذلك له طريق تسلك ويمكن استدراكه بالعلم والتعليم والتدريب أما نظم القرآن فليس له مثال يحتذى ولا إمام يقتدى ولا يصح اعتقاد وقوع مثله أبداً من البشر .

وقال الإمام فخر الدين الرازى إن وجه الإعجاز فى القرآن هو الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب وقال الزملكانى إن وجه الأعجاز فى القرآن راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق تأليف . اعتدلت مفرداته تركيباً وزنة ومعنى بأن يوقع كل فن منه فى مرتبته العليا فى اللفظ والمعنى قال ابن سراقة أن من بعض وجوه الإعجاز فى القرآن ما ذكر فيه من أعداد الحساب من جمع وضرب وقسمة والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة ليعلم بذلك أهل الحساب أنه صلى الله عليه وسلم صادق فى قوله وفى دعوته وأن القرآن ليس من عنده إذ لم يكن محمد خالط الفلاسفة ولا تلق الحساب ولا الهندسة .

وقال الجمهور من العلماء والحذاق أن وجه الإعجاز فى القرآن قد وقع بنظمه العجيب وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه : وذلك أن الله عز وجل قد أحاط بكل شىء علما وأحاط بالكلام كله : فإذن ترتيب اللفظة بعد اللفظة علم بإحاطته فأى لفظة منه تصلح أن تلى الأولى وتبين المعنى

بعد المعنى : ثم هو كذلك من أول القرآن إلى آخره : وليس ذلك فى قدرة أحد من البشر لما يعتريهم من الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك أبداً وقد جاء نظم القرآن الكريم فى الغاية القصوى من الفصاحة وبطل قول من قال إن العرب كان فى قدرتهم الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك :

والصحيح الذى لا يعقل غيره أنه لم يكن ذلك فى قدرة أحد قط : ولهذا ترى البليغ من العرب ينقح القصيدة أو الخطبة له حولا كاملا فكلما أعاد النظر فيها غير وبدل ألفاظاً بألفاظ وأبياتاً بأبيات المرة بعد المرة وهلم جرا أما الكتاب العزيز فلو نزعت منه لفظة واحدة ثم أدير لسان العرب وعده معاجم اللغويين على لفظة أحسن منها لم يوجد ، وتتبين لنا البراعة فى أكثره ويخفى علينا وجهها فى مواضع . لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ فى سلامة الذوق وجودة القريحة وقد قامت الحجة على العالم كله بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة ، كما قامت الحجة فى معجزة موسى بالسحرة وفى معجزة عيسى بالأطباء على نحو ماسبق ولأن الله عز وجل إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير وبأبدع ما يكون فى زمن النبى الذى أراد إظهاره فيه . فكان السحر قد بلغ نهايته فى زمن موسى والطب فى زمن عيسى والفصاحة والبلاغة فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . ولكون شريعته المحمدية باقية إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة الباقية وهى القرآن ليراها ذوو البصائر على مر الأيام والدهور وقد انقرضت معجزات الأنبياء كلها بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وكذا خرقه للعادات فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شىء مما أخبر به أنه سيكون وقد حوى القرآن علم كل شىء . فإذا أردت الطب أخذته

من قوله (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا)[١] ومن قوله (إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما)[٢] وقد تكلم فيما يفيد نظام الصحة بقوله تعالى (شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس)[٣] .

وفي الهندسة من قوله تعالى (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب)[٤] والجدل والمناظرة من قوله (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر)[٥] .

وأما الجبر والمقابلة : فقيل إن أوائل السور وما ذكر فيها من حروف مقطعة فيها ذكر عدد أعوام وأيام وتواريخ أمم سالفة وأن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقي مضروب بعضها في بعض ، هكذا ذكر العلماء في كتب التفسير وأما الخياطة : فمن قوله (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة)[٦] والحدادة من قوله (وألنا له الحديد) وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، والنجارة من قوله (أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا (والغزل) من قوله (كالتي نقضت غزلها) والنسج من قوله (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً (والفلاحة والزراعة) من قوله (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (ودفن الموتى) من قوله فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه (والصيد) من قوله (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم

(١) آية (٣٦) سورة الأعراف
(٢) آية (٦٧) سورة الفرقان
(٣) آية (٦٩) سورة النحل
(٤) آية (٣٠) سورة المرسلات
(٥) آية (٢٥٨) سورة البقرة
(٦) آية (٢٢) سورة الأعراف

وللسيارة)[١] والغوص من قوله (والشياطين كل بناء وغواص)[٢] وقوله (وتستخرجون منه حلية تلبسونها) (والصاغة) من قوله (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار (والزجاج من قوله (صرح ممرد من قوارير) والفخار من قوله (فأوقدلى ياهامان على الطين فاجعل فاصرحا) والملاحة من قوله (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) والكتابة من قوله (وربك الأكرم الذى علم بالقلم) والخبز من قوله فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه و (الطبخ) من قوله (فجاء بعجل حنيذ) والغسل من قوله (وثيابك فطهر) والجزارة من قوله (إلا ماذكيتم) والبيع والشراء من قوله (وأحل الله البيع وحرم الربا) (والصبغ من قوله صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة وقوله (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) والحجارة من قوله وتنحتون من الجبال بيوتاً والكيل والوزن من قوله (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون والرمى من قوله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . وفيه من أسماء الآلات والصناعات والمأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ماوقع وما يقع فى الكائنات ما يحقق قوله تعالى : (مافرطنا فى الكتاب من شيء) .

القسم الثالث : فى بيان دفاع العلماء عن حياض القرآن الكريم والذود عنه وردهم على ما أثير من شبهات حوله وتآليفهم فى ذلك وتاريخ تدوينها وذكر أمثلة مما ألف فى هذا المجال فلا شك أن الله جلت قدرته قيض للقرآن فى كل زمان ومكان من العلماء المخلصين من جندوا أنفسهم للدفاع عن ساحته فأتعبوا نهارهم وأسهروا ليلهم فى دفع هذه الأباطيل

---

(١) آية (٩٦) سورة المائدة . (٢) آية (٣٧) سوره ص .

ودحض تلك الشبهات بما ألفوا من كتب عديدة وبحوث فى لهجتها شديدة فأخمدوا نار الفتنة وأطفأوا لظى الضلال والعناد، فجزاهم الله عن القرآن والإسلام خير الجزاء ولنذكر منهم على سبيل المثال لا عل سبيل الحصر ما نعرفه . ففى أوائل القرن الرابع الهجرى ظهر كتاب لمحمد بن خلف بن المرزبان جمع فيه علوم القرآن جملة واحدة واسمه (الحاوى فى علوم القرآن) قيل أنه يقع فى سبعة وعشرين جزءاً ثم ظهر بعده كتاب لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى (اسمه عجائب علوم القرآن وكتاب لأبى الحسن الأشعرى واسمه (المختزن فى علوم القرآن) ثم كتاب لمحمد بن على الأدفوى اسمه الاستغناء فى علوم القرآن) قيل إنه يقع فى عشرين مجلداً) .

وفى القرن الخامس ألف على بن ابراهيم بن سعيد الحوفى كتاب البرهان فى علوم القرآن ويعد من أعظم ما ألف فى هذا الفن ذكروا أنه يقع فى ثلاثين مجلدا ثم فى القرن السادس ظهر كتابان لعبد الرحمن بن الجوزى أحدهما (فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن) والآخر المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن وفى القرن السابع الهجرى اشتهر كتاب لعلم الدين السخاوى تلميذ الشاطبى المقرىء وهو (جمال القراء وكمال الإقراء) ذكر فيه جملة وفيرة من علوم القرآن وتلاه أبو شامة فألف كتاباً أسماه (الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز) وفى القرن الثامن ألف بدر الدين الزركشى كتابه البرهان فى علوم القرآن) ويعد درة من أنفس الدرر التى اشتهرت فى هذا المجال وفى القرن التاسع كثرت التآليف فى علوم القرآن ومعظمه جمع لما سبق وتكرار له . وممن خصهم جلال الدين السيوطى بالذكر من أهل هذا القرن جلال الدين البلقينى وله كتاب اسمه (مواقع العلوم من مواقع النجوم) ومحمد بن سليمان الكافيجى شيخ السيوطى وقد ذكر السيوطى أنه طالع كتابه فى علوم القرآن وقال رأيته تأليفاً لطيفاً ومجموعاً ظريفاً ذا تركيب وتقرير وتنويع وتحوير وبعد هؤلاء جميعاً جاء حافظ

عصره جلال الدين السيوطى فألف كتابين فى علوم القرآن أولهما التحبير فى علوم التفسير جمع فيه أكثر من مائة نوع من علوم القرآن وثانيهما الإتقان فى علوم القرآن وكان مجموع ماذكر فيه من علوم القرآن ثمانين نوعاً وهو من أحسن ماألف فى علوم القرآن بعد كتاب الزركشى (البرهان) وما عرف بعد الإتقان كتاب فى هذا الميدان يستحق أن يذكر فكأنما كاد الإتقان أن يكون خاتمة العقد لولا أنه بدأت بوادر نهضة قرآنية فى أوائل هذا القرن الرابع عشر الذى نعيش فيه وقامت الدراسات القرآنية على سوقها . وبدأ البحث العلمى يزدهر فى علوم القرآن .

فمن المؤلفات القيمة الجامعة لعلوم القرآن التى ذكرها السابقون والمحتوية على أبحاث وتحقيقات فى مسائل هامة جديدة (كتاب مناهل العرفان) للشيخ عبد العظيم الزرقانى المصرى من علماء الأزهر الشريف ، وقد قام فيه بالدفاع عن حياض القرآن وعما أثير حوله من تهم المبطلين وشبهات المعاندين وقد أقام الأدلة والبراهين على موضوع إمكان الوحى وكذلك كتاب النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز وكتاب (الوحى المحمدى) للشيخ محمد رشيد رضا وهو من أنفس الكتب وفى موضوع إعجاز القرآن كتاب أديب العربية مصطفى صادق الرافعى واسمه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية وفيه فوائد جمة ومن رواد التفسير المعاصر الذى يمتاز بالأسلوب العميق البليغ والذى يخاطب القلب والعقل والذوق الأدبى المرحوم سيد قطب صاحب كتاب (فى ظلال القرآن) .

وهناك مباحث شتى فى علوم القرآن لعلماء معاصرين لا داعى لذكر أسمائهم حتى لانتهم بهم أو نقصر فى سواهم ممن تجب الإشارة إليهم والإشادة بهم كمباحث الشيخ صبحى الصالح وعبد الكريم الخطيب والشيخ عبدالفتاح القاضى الذى ألف فى علوم القرآن المختلفة أكثر من عشرين مؤلفاً جزاهم الله جميعاً القرآن وأهله خير الجزاء ونفع الله بعلومهم : آمين .

الباب الأول

فى مصدر القرآن الكريم ومرات نزوله

اعلم وفقك الله أن هذا المبحث من أهم مباحث علوم القرآن . لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله وأساس للتصديق بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم . وأن الإسلام حق ثم هو أصل لكل المباحث بعده فى هذا العلم . فلا غرو أن يتصدرها جميعاً ليكون من تقريره وتحقيقه سبيل إلى تقريرها وتحقيقها وإلا فكيف البناء على غير أساس ولأجل الإحاطة بهذا المطلب العزيز سنتكلم على مصدر القرآن وعلى معنى نزوله ، ثم على مرات هذا النزول ، ودليل كل نزول وكيفيته وحكمته . ثم على الوحى وأدلته العقلية والنقلية والعلمية ثم دفع الشبهات الواردة على ذلك فنقول :

١ — معنى نزول القرآن : جاء التعبير بمادة نزول القرآن وماتصرف منها فى الكتاب والسنة ، قال تعالى فى سورة الإسراء (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وقال صلى الله عليه وسلم (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر والنزول فى استعمال اللغة يطلق ويراد منه الحلول فى مكان كما يقال نزل الأمير بالمدينة . والمتعدى منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير فى مكان كقوله تعالى (رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين)(١) ويطلق النزول فى اللغة

---

(١) آية (٢٩) سورة المؤمنون

كذلك على انحدار الشيء من علو إلى أسفل والمتعدى من هذا معناه تحريك الشيء من أعلى إلى أسفل كقوله تعالى (أنزل من السماء ماء) ولا شك أن كلا هذين المعنيين قد ورد بهما القرآن : وكأن وجه اختيار التعبير بمادة الإنزال وما تصرف منها هو التنويه بشرف هذا الكتاب نظراً إلى ما تشير إليه هذه المادة من علو صاحب هذا الكتاب علواً كبيراً) قال تعالى فى سورة الزخرف (حم والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) . وعلى هذا فقد شرف الله تعالى القرآن بأن جعل له تنزلات ثلاث .

الأول : إلى اللوح المحفوظ ودليله قوله سبحانه (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ وكان هذا الوجود فى اللوح بطريقة وفى وقت لا يعلمه إلا الله جل جلاله ومن أطلعه على غيبه . وكان جملة لا مفرقا لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ولا صارف عنه ، وليس هناك حكمة لتنجيمه فى هذا النزول كما حصل تنجيمه عند إنزاله على النبى صلى الله عليه وسلم وترجع حكمة هذا النزول إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه وإقامته سجلا جامعاً لكل ما قضى الله وقدر وما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين . فهو شاهد ناطق ومظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله وقدرته وعلمه وإرادته وحكمته وواسع سلطانه ولا ريب أن الإيمان به يقوى إيمان العبد بربه ويبعث الطمأنينة إلى نفسه والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أقضيته وشئونه فى عباده كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القضاء والقدر . ومن هنا تهون عليه الحياة بسرائها وضرائها كما قال جل وعلا : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا

بما اتاكم والله لايحب كل مختال فخور)[١] . على أن الإيمان باللوح وبالكتابة فيه أثر صالح فى استقامة العبد المؤمن على الجادة وتفانيه فى طاعة الله ومرضاته . وبعده عن مساخطه ومعاصيه لاعتقاده أنها مسطورة عند الله فى لوحه . مسجلة لديه فى كتابه . قال جل ذكره (وكل صغير وكبير مستطر)[٢] .

الثانى : من التنزيلات النزول إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ودليله قوله سبحانه فى سورة الدخان (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة)[٣] الآية وكذا قوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وفى سورة البقرة (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن)[٤] فهذه الآيات الثلاث تدل على أن القرآن أنزل فى ليلة واحدة توصف بأنها مباركة من آية الدخان وتسمى ليلة القدر من سورة القدر وهى من ليالى شهر رمضان وذلك جمعا بين النصوص الثلاثة فى العمل بها ودفعا للتعارض فيما بينها ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم مفرقاً منجماً حسب الحوادث والوقائع والأسئلة التى تختلج فى صدور العرب ولم ينزل عليه فى ليلة واحدة بل فى ثلاث وعشرين سنة فتعين أن يكون النزول التى دلت عليه الآيات الثلاث السابقة نزولا من نوع آخر غير النزول على النبى صلى الله عليه وسلم وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة لمكان هذا النزول وأنه فى بيت العزة من السماء الدنيا كما تدل عليه الروايات الآتية . فقد أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال فصل القرآن من الذكر فوضع

---

(١) آية (٢٢) من سورة الحديد . (٢) آية (٥٣) من سورة القمر .
(٣) آية (٣) من سورة الدخان . (٤) آية (١٨٥) من سورة البقرة .

فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به النبى صلى الله عليه وسلم وأخرج النسائى والحاكم والبيهقى من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال (أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر . ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة) ثم قرأ (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا)[١] .

(وقرآناً فرقناه لتقرأ على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)[٢] .

وأخرج الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا) وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وقوله إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وهذا أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع . فقال ابن عباس (إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقا يتلو بعضه بعضا على تؤدة ورفق) فهذه الأحاديث الأربعة من جملة أحاديث ذكرت فى هذا الباب وكلها صحيحة كما قال العلامة السيوطى وهى أحاديث موقوفة على ابن عباس . غير أن لها حكم المرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم لما هو مقرر من أن قول الصحابى لا مجال للرأى فيه ولم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فحكمه حكم المرفوع ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التى لا تعرف إلا من المعصوم، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فثبت الاحتجاج بهذه

---

(١) آية (٣٣) سورة الفرقان . (٢) آية (١٠٦) سورة الإسراء .

الأحاديث . وكان هذا النزول جملة واحدة فى ليلة واحدة هى ليلة القدر كما علمت لأنه المتبادر من التصور للنصوص الثلاثة السابقة وللتنصيص على ذلك فى الأحاديث التى عرضت من قبل بل ذكر السيوطى أن القرطبى نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا . والحكمة فى هذا النزول كما نقل عن العلامة أبى شامة هى تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه بإعلام سكان السماوات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم . وبإنزاله مرتين مرة جملة ومرة مفرقا . بخلاف الكتب السابقة فقد كانت تنزل جملة مرة واحدة .

أما التنزيل الثالث للقرآن فهو واسطة عقد التنزيلات لأنه المرحلة الأخيرة فمنها شع النور على العالم وبه وصلت هداية الله إلى الخلق . وكان هذا النزول بواسطة أمين الوحى جبريل يهبط به على قلب النبى صلى الله عليه وسلم كما يدل عليه قوله سبحانه : (نزل به بالروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين)[1] .

وخلاصة القول فى كيفية أخذ جبريل القرآن وعمن أخذ فهى كما قال العلامة الزرقانى فى المناهل قال البيهقى فى معنى قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) يريد والله أعلم أنا أسمعنا الملك وأفهمناه وأنزلناه بما سمع . ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعا ويرى أنه أمثل الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله عز وجل لا من ناحية تأويل النزول فى الآية بابتداء النزول . ويؤيد ذلك ما أخرجه الطبرانى من حديث النواسى ابن سمعان مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم : (إذا تكلم بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا

(١) آية (١٩٣ — ١٩٥) سورة الشعراء .

سجدا فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله بوحيه بما أراد فينتهى به إلى الملائكة فكلما مر بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا ؟ قال الحق . فينتهى به حيث أمر : انتهى .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير عرض مادمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده . ولنعلم فى هذا المقام أن الذى نزل به جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس وتلك الألفاظ هى كلام الله وحده لا دخل لجبريل ولا لمحمد صلى الله عليه وسلم فى إنشائها وترتيبها بل الذى رتبها أولا هو الله سبحانه وتعالى. ولذلك تنسب له دون سواه وإن نطق بها جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم وملايين الخلق من بعد جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم من لدن نزول القرآن إلى قيام الساعة وفى هذا القدر من تلك المقدمة كفاية ولنبدأ فى أصل البحث وموضوعه .

فنقول وبالله التوفيق : لم يزل أعداء الحق قديماً وحديثاً يثيرون الغبار فى وجه الدين الإسلامى ويلصقون به التهم والأباطيل . وأهم أسلحتهم فى هذه المعركة هى الشبهات التى يثيرونها حول كتاب الله فكلما أ (أخمدت لهم فتنة عمدوا إلى سواها وهم اليوم كدأبهم بالأمس يرددون بعض الشبهات ويختلقون شبهات أخرى ليستجلبوا بها قلوب الفارغين الغافلين من أبناء المسلمين إلى التشكيك فى القرآن الكريم وهذا ما يقتضى التتبع لأهم هذه الشبهات التى تثار حديثاً بوجه خاص لفضحها وإبطالها بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة من المنقول والمعقول ، فمن تلك الشبهات :

الشبهة الأولى (الوحى النفسى) زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مصلحاً عبقرياً ذا خيال واسع وإحساس عميق فكان وجدانه يطغى كثيراً على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه . وماتلك إلا صورة أخيلته ووجدانه . والقرآن هذا إنما هو كلامه ونابع من نفسه وقد جاء كلاماً معجزاً نتيجة لكلام صاحبه وعبقريته وليس القرآن وحياً كما يقال ، لأنه لم يثبت علمياً أن هناك غيباً وراء المادة حتى يصح أن ينسب إليه القرآن ، وزعم بعضهم أنه صلى الله عليه وسلم إنما نسب القرآن لله مع أنه صادر من نفسه ليضفى بذلك عليه القدسية المستمدة من الله فقد رأى بثاقب فكره أن فى ذلك ما يعينه على إصلاح الناس وييسر له انقيادهم إليه : ورداً على هذه الفرية ودفعاً لتلك الشبهة :

نقول إن النبى صلى الله عليه وسلم كان مصلحاً عبقرياً وكان ذا ذوق سليم وذكاء وقاد ، لكن ليس ذلك نتيجة تعليم ولا ثمرة تجربة ولا خلقا مكتسباً وإنما كان كذلك بإصلاح الله له ظاهره وباطنه فقد تولاه مولاه من يوم أن أراد خلقه إلى أن توفاه وألحقه بالرفيق الأعلى فقد اصطنعه الله لنفسه ورباه على عينه ورعايته ، وأعده إعداداً يليق بحمل رسالة ربه فرباه وأدبه على موائد رحمته كما قال صلى الله عليه وسلم (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) وأما ذكاؤه ورقة إحساسه ووجدانه وعمقه وأدبه ورأفته ورحمته وشمائله فهى أكثر من تعد وتحصى فقد عجز الأولون عن حصرها ويكفى فى ذلك قول الله فيه (وإنك لعلى خلق عظيم) وأما إنكارهم الوحى وقولهم إن القرآن من كلام محمد ونابع من نفسه الخ فهو افتراء وكذب واختلاق وحقد (حسدا من أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) فإنكارهم للوحى واستبعادهم ذلك ليس إلا نتيجة انطماس بصائرهم

واتخاذهم ذلك أداة للفتنة وستاراً يقضون من ورائه وطراً للغواية ومأرباً للإباحية وسبيلا إلى هدم الأديان وضلال بنى الإنسان .

أما الوحى فحقيقته فى لسان الشرع : هو أن يعلم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم . ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر ويكون الوحى على أنواع شتى . فمنه ما يكون مكالمة بين العبد وربه . كما كلم الله موسى تكليما ومنه ما يكون إلهاماً يقذفه الله فى قلب من اصطفاه على وجه من العلم الضرورى لا يستطيع له دفعا . ولا يجد فيه شكا . ومنه ما يكون مناماً صادقاً يجىء فى تحققه ووقوعه كما يجىء فلق الصبح فى تبلجه وسطوعه . ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحى جبريل عليه السلام وهو ملك كريم ذو قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وذلك النوع هو أكثر الأنواع ، ووحى القرآن كله من هذا القبيل قال تعالى فى سورة الشعراء (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) ويهبط هذا الوحى على أساليب شتى . فتارة فى الأرض وكان يقول : أنا جبريل وأنت رسول هذه الأمة .

وقد يظهر للرسول صلى الله عليه وسلم فى صورته الحقيقية الملكية فقد رآه على هذه الصورة مرتين فى أول نزوله باقرأ بإسم ربك الذى خلق وذلك فى الأرض ومرة فى السماء ليلة المعراج وتارة يظهر فى صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه وتارة يهبط على الرسول خفية لا يرى ولكن يظهر أثره بالتغيير والانفعال على صاحب الرسالة فيغط غطيط النائم ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء وما هى فى شىء من الغشية والإغماء إن هى إلا إستغراق فى لقاء الملك الروحانى وإنخلاع عن حالته البشرية العادية فيؤثر ذلك على الجسم فيغط ويثقل ثقلا شديد قد يتصبب منه الجبين عرقاً فى اليوم الشديد

البرد ، وقد يكون وقع الوحى على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل فى إذن سامعيه وذلك أشد أنواعه ، وربما يسمع الحاضرون صوتاً عند وجه الرسول كأنه دوى النحل لكن لا يفهمون كلاما ولا يفقهون حديثاً. أما هو صلى الله عليه وسلم فيسمع ويعى مايوحى إليه ويعلم علم اليقين أن هذاهووحى الله دون لبس ولاخفاء ولا إرتياب ، فإذا إنجلى عنه الوحى وجد ماأوحى إليه حاضراً فى ذاكرته منتقشاً فى حافظته كأنما كتب فى قلبه كتابة ، والأدلة على ذلك عقلية ونقليه .

فالنقلية مارواه البخارى فى صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ماقال وأحيانا يتمثل لى الملك فيكلمنى فأعى مايقول (قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

وأما الأدلة العقلية :

فلنعلم جميعاً أن أعداء الوحى ومنكريه لا يؤمنون بالأدلة الشرعية النقلية وإنما يؤمنون بالعقل وعلى الطريقة التى يستسيغونها وبالعلم الذى تواضعوا عليه فى إصطلاحهم الحديث وهو جملة المعارف اليقينية التى وصل إليها البحث العلمى الجديد فى الوجود وكائناته من جعل الشك أساسا للبحث والاستناد إلى القاطع الذى يؤيده الحس دون غيره ، فهم يقدمون الشك ويمعنون فيه ثم لا يعترفون إلا بالحسيات ولا يحفلون بمجرد العقليات . ومن هنا حبسوا أنفسهم فى سجن المادة ومكثوا حيناً من الدهر ينكرون ماوراء المادة ويسرفون فى الشك إلى أبعد الحدود ويستخفون بأمر الإلهيات

والنبوات والوحى إلى مدى بعيد لم تصل إليه أظلم عهود الجاهلية لولا أن العلم نفسه صدمهم صدمة عنيفة غيرت رأيهم فى إنكار ما وراء المـــادة ، فلنبدأ لهم من هنا بأدلة الوحى العلمية لأنها فى الواقع أدلة لإمكان الوحى وتقريبه إلى العقول ، فإمكان الوحى هو الخطوة الأولى فى الموضوع ، وهو ملحوظ فى المقدمة الأساسية من مقدمات الدليل العقلى الآتى ، فلا غرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكان الصدارة والتقديم فنقول : قال العلامه الزرقانى رحمه الله : إن الدليل الأول من الأدلة العقلية على إمكان الوحى ، هو (التنويم المغناطيسى) وهو من المقررات العلمية الثابتة ، وقد كشفه الدكتور (مسمر) الألمانى فى القرن الثامن عشر وجاهد هو وأتباعه على مدى قرن كامل من الزمان فى سبيل إثباته بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق واطمأنوا إلى تجاربه وأخيراً أثبتوا بواسطته ما يأتى :

أولا : أن للإنسان عقلا باطناً أرقى من عقله المعتاد كثيراً وهو فى حالة التنويم يرى ويسمع من بعد شاسع ويقرأ من وراء حجب ويخبر عن أشياء ليست فى متناول علمنا مما لا يوجد فى عالم الحس .

ثانيا : أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض يزداد العقـــل الباطن سمواً بتنقله فيها .

ثالثاً : قد يوصل التنويم المغناطيسى إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط أى الشخص المستعمل فيه هذا التنويم من جسده وتمثل إلى جانبه غير مرئية بينما يكون الجسم فى حالة تشبه الموت لولا وجود علاقة خفية بين الروح والجسد غير مدركة .

رابعـــاً : أنهم أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحاً وأن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال ولا تنحل هذه الروح بانحلال الجسم ومن ذلك استحضار الارواح وإن كنا لا نسلم بأنها روح الموتى ولكن إن صح ذلك فإنها من أعمال الجن .

خامساً : أثبتوا أن الروح تتصل بالأرواح التى سبقتها إذا تجردت عن المادة إلى غير ذلك مما لا نسلم بجميع تفاصيله وان كنا نسلم بهذا العلم وتجاربه ومقرراته فى الجملة لثبوت الدليل بها جملة أيضاً بواسطة التجارب العديدة والمشاهدات الكثيرة وله فى الغرب أيضاً من علماء وطلاب ودور كتب ومنظمات ومستشفيات يؤمها الناس للتداوى به وليس من موضوعنا هنا أن نتوسع الك فى هذا العلم وتاريخه وتجاربه وفوائده ولكنا نريد أن نتقدم إليك بفكرة مجملة عنه تريك إلى أى حد أظهر الله فى هذه العصور آيات باهرات على أيدى الطبيعيين الذين ينكروا ماوراء المادة ويسرفون فى هذا الإنكار . فانقلبوا بقدرة من الله وفضل يثبتون ماوراء المادة ويسرفون فى هذا الاثبات تحقيقاً لقوله سبحانه (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يبين لهم أنه الحق) من خاتمـــة سورة فصلت ثم اننا لنضع بين يديك هنا تجربة واحدة من تجارب هذا التنوين المغناطيسى تقرب اليك الوحى كل التقريب وتثبت إمكانه فى ذهنك وعقلك ، يقول صاحب المناهل وهذه التجربة قد رأيتها بعينى وسمعتها بأذنى بنادى جمعية الشبان المسلمين فى مصر على مرأى ومسمع من جمهور مثقف كبير حضروا ليشهدوا محاضرة مهمة فى التنويم المغناطيسى وإثبات أنه يمكن أن يتخذ سلاحا مسموماً لتغيير عقيدة الشخص ودينه كما استغل ذلك بعض المبشرين إذ فتن بهذا العدوان الخبيث شاب من خيرة الشبان المسلمين سنه ١٣٥١ ﻫ فى حادثة مشهورة مروعه وماهى منكم ببعيد فقد قام المحاضر وهو أستاذ فى التنويم المغناطيسى وأحضر فتى فيه استعداد خاص لتأثر بالاستاذ كما أن الأستاذ فيه استعداد خاص للتأثير على هذا الفتى فنظر الأستاذ فى عينى الفتى نظرات عميقة نافذة وأجرى عليه حركات يسمونها سبحات فما هى إلا لحظة حتى رأينا الفتى يغطو غطيط النائم وقد امتقع لونه وهمد جسمه وفقد إحساسه المعتاد حتى لقد كان أحدنا يخزه بالإبرة وخزات عدة مرات

مرات فلا يبدى الفتى أى حركة ولا يظهر أى عرض لشعوره وإحساسه بها وحينئذ تأكدنا أنه قد نام ذلك النوم الصناعى المغناطيسى فأخذ الأستاذ يسأله ما اسمك فأجابه باسمه الحقيق فقال الأستاذ ليس هذا هو اسمك وإنما اسمك كذا (وافترى عليه اسما آخر) ثم أخذ يقرر فى نفس الفتى وهذا الاسم الجديد الكاذب ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق بواسطة أغاليط يلقنها إياه فى صورة الأدلة وبكلام يوجهه إليه فى صيغة الأمر والنهى حتى خضع له وأذعن ثم أخذنا نناديه باسمه الحقيقى المرة بعد الأخرى فلا يجيب ثم نناديه باسمه الموضوع فيجيب دون تردد ولا تلعثم ثم أمر الأستاذ أن يتذكر الفتى أن هذا الاسم هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته ثم أيقظه وأخذ يتم محاضرته ونحن نفجأ الفتى بالاسم الحقيقى فلا يجيب ثم نفجأه باسمه الجديد فيجيب حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب لذلك عاد الفتى إلى حاله الأول من العلم باسمه الحقيقى.

وبهذه التجربة أثبت الأستاذ أن المنوم (بكسر الواو) يستطيع أن يمحو من نفس الشخص كل أثر يريد محوه مهما كان ثابتا فى النفس كاسم الإنسان ونحوه . وإنما اختار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين : أحدهما أن محو الدين عدوان أثيم وإجرام شنيع لم تقبله نفسية الحاضر ولا الحاضرون ثانيهما أن الاسم أثبت فى نفس صاحبه من دينه فمحوه منها أعجب قال وبهذه التجربة ثبت لنا من طريق علمى ما قرب إلينا إمكان الوحى عمليا وما جعلنى أعلله تعليلا علمياً (فالوحى) عن طريق الملك هو عبارة عن اتصال الملك اتصالا يؤثر به الأول فى الثانى ويتأثر فيه الثانى بالأول وذلك باستعداد خاص فى كليهما فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير لأنه روحانى محض والثانى فيه قابلية التلقى عن هذا الملك لصفاء روحانيته وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك وعند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية ويظهر أثر التغير عليه ويستغرق فى الأخذ والتلقى عن

الملك ويتطبع ماتلقاه ماثلا فى نفسه حاضراً فى قلبه كأنما كتب فى صحيفة فؤاده كتاباً : فانظر أيها العاقل كيف أن المخلوق يستطيع أن يؤثر فى نفس مخلوق آخر ذلك التأثير الذى علمت بواسطة التنويم المغناطيسى ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر فى نفس من شاء من عباده بواسطة الوحى المذكور ؟ كلا ثم كلا إنه جل شأنه على مايشاء قدير .

والدليل العلمى الثانى على امكان الوحى . هو أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده وننتفع به مما يسمونه بالتليفون مثلا واللاسلكى الأعجب والميكرفون والراديو والتليفزيون ونحو ذلك فعن طريق هذه المخترعات أمكن للإنسان أن يخاطب من مكان فى آفاق بعيدة عنه لا يستطيع الوصول إليها بعد عشرات السنين من السير المتصل ثم هو فى لحظة أو لحظات يخاطب من يشاء ويفهمه ويرشده إلى ما أراد فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر على أن يوحى إلى بعض عباده ما شاء عن طريق الملك أو غير الملك : تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا

الدليل الثالث : استطاع العلم الحديث أن يملأ بعض اسطوانات الجماد الجامد بأصوات وأنغام وبقرآن وكلام على وجه يجعلها حاكية له بدقة وإتقان وبين أيدينا من ذلك الشىء الكثير الذى لا سبيل إلى إنكاره أبعد هذه المخترعات القائمة يستبعد على القادر جل وعلا بواسطة ملك ومن غير واسطة ملك أن يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس يهدى به خلقه ويظهر به حقه على وجه يجعل ذلك الكلام منتقشا فى قلب رسوله حتى يحكيه بدقة وإتقان ؟

الدليل الرابع : أننا نشاهد بعض الحيوانات الضعيفة تأتى بعجائب الأنظمة والأعمال مما يحيل معه أن يكون ذلك صادراً عن تفكير لها أو سازجة فيها ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصــدر فى ذلك إلا عن إرادة عليا توحى إليها وتلهمها تلك العجائب والغرائب من الصناعات والأعمال

والدقة : فإذا صح هذا فى عالم الحيوان فهو أولى أن يصح فى عالم الإنسان حيث استعداده للاتصال بالأفق الأعلى يكون أقوى وأخذه عنه يكون أتم ومن ذلك ما يكون بطريق الوحى . ولنضرب لك مثلا لتلك الحيوانات فى الهاماته العلوية مثل النمل والنحل وما تأتيان به من ضروب الأعمال ودقة النظام التى تتمثل فى هندسة قرص الشمع الذى يضع النحل فيه عسله فانظر تلك الهندسة العجيبة التى يصنعها : وهناك فى بعض المناطق الحارة التى يذوب فيها الشمع من تلك الحرارة كيف يصنع النحل ازاء ذلك إنه يقسم بعضه فرقاً تتناوب وتسهر فرق هذا الشمع بعد صنعه أفواجا أفواجا لتنزل عليه الهواء الرطب فيبقى متجمد ليحفظ ذلك العسل الذى يوضع فيه ، ومن عجائب النمل أنه يسير على أعظم ترتيب وأدق نظام فيجمع غذائه فى الصيف غالباً ويحفظه فى أوعية بعيدة عن الرطوبة وخاصة إذا كانت هذه الأغذية بذوراً فيقسم البذرة ثلاثة أو أربعة ليضمن بذلك حفظها من إخراج نباتها فتفسد وهناك حيوان غريب اسمه (اكسيكلوب) قال عنه الأستاذ (ميلين أدوار) المدرس بجامعة السربون بفرنسا إن الحيوان المسماه (ايكسيكلوب) تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض مباشرة وتخرج صغارها على حالة ديدان لا أرجل لها ولا تستطيع حماية نفسها من أبة عادية عليها كما أنها لا تستطيع الحصول على غذائها وقتئذ ومع ذلك فإن حياتها تقتضى أن تعيش مدة سنة فى مسكن مقفل وفى هدوء تام وإلا هلكت فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد إلى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا فإذا أتمته أخذت فى جلب ذخيرة إليه تكفى صغيراً واحداً مدة سنة تلك الذخيرة هى طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية فتحشو بها قاع السرداب ثم بنشارة الخشب وتكون منها عجينا تجعله سقفا على تلك البيضة ثم تأتى فتضع عليه بيضة واحدة ثم تأتى بذخيرة أخرى فتضعها فوق تلك السقف ثم تضع بيضة أخرى وهلم جرا حتى يفرغ بيضها ثم تترك بيضها الكل وتموت .

فمن ذا الذى علم هذه الحشرات الضعيفة الساذجة ومن الذى ألهمها هذا النظام المنقطع النظير وتلك الصناعات المحيرة للعقول ومن الذى أفهمها وهى تموت بعد أن تبيض مباشرة أن صغارها التى ستولد فى حاجة إلى البقاء سنة فى حالة ضعف وعجز ومن الذى غرس فى قلبها هذه العناية بنوعها حتى تكلفت كل هذه المشقة فى وضع بويضاتها هكذا لا ريب أن قيوم الوجود يؤتى الكائنات علما بما يقيمها وبما يصلح شأنها من غير طريق الحواس التى لا تستطيع أن تكتسبه بها ، فسبحان الذى خلق فسوى وقدر فهدى . فمن العبث وضلال الرأى أن يثبت الباحث الطبيعى إلهاما تبعثه القدرة الإلهية إلى أحقر الحشرات كما علمت ثم ينفيه عن النوع البشرى وهو أشد ما يكون احتياجا إلى هذا الوحى الالهام فى حياته الفردية والاجتماعية وأما الدليل النقلى على إثبات الوحى : فقوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى إن هو وحى يوحى علمه شديد القوى)[1] وقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نهدى به من نشاء من عبدنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم)[2] وقوله (وإنه لتنزل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين)[3] ومن السنة المطهرة ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت (أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة رضى الله عنها فتزوده لمثلها حتى فاجاه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فيه فقال أقرأ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ما أنا بقارىء .

فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال أقرأ فقلت ما أنا بقارىء

---

(١) آية ٣ ، ٤ ، ٥ من سورة النجم (٢) آية من سورة الشورى
(٣) الآيات من ١٩٢ — ١٩٥ سورة الشعراء .

فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال إقرأ باسم ربك الذى خلق)
فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق)
حتى بلغ قوله تعالى (مالم يعلم) . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره الحديث إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الواردة فى هذا الباب فارجع إليها إن شئت فى كتب الحديث والسيرة والله يرشدك .

وأما مازعمه بعضهم من أن القرآن كلام محمد وإنما نسبه لله ليضفى عليه القدسية المستمدة من الله وأنه رأى بثاقب فكره أن فى ذلك مايعينه على إصلاح الناس وييسر له انقيادهم إليه .

فنقول رداً على ذلك إن القرآن لو كان من كلام محمد كما يزعمون لكان من الفخر له أن ينسبه لنفسه بدل نسبته لله ولأمكن أن يدعى به الألوهية الأفضل من النبوة فيكون مقدساً فى نظر الناس وهو إله أكثر من قداسته فى نظرهم وهو نبى ولما كان فى حاجة إذاً إلى أن يلتمس هذه القدسية المزعومة بنسبته القرآن إلى غيره وصدق الله إذ يقول (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[1] فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) .

وإنى لأعتقد أن هؤلاء الملاحدة قد غاب عنهم أنهم يتحدثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طهراً ونبلا وشرفاً وذهلوا عن أنهم يمسون بافترائهم هذا أسمى مقام اشتهر أمانة وصدقاً فكان صلى الله عليه وسلم إذا مر بقومه يشيرون إليه بالبنان قائلين هذا هو الصادق الأمين ، وقد نزلوا على رأيه ورضوا بحكمه فى حادثة اختلافهم على من يضع الحجر على الكعبة .

والعقل المنصف قال ولا يزال يقول : ماكان هذا الأمين الصدوق

---

(١) آية ٨٢ من سورة النساء .

ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله . كلا وألف كلا ولكن المنافقين لا يفقهون ثم إن هذه الشبهة وليدة غفلة عما تضمنه القرآن العظيم من تلك الندوات العلمية وأنبائه الغيبية وهدايته الخارجة عن أفق العادة فى كافة النواحى البشرية فردية كانت أو اجتماعية . إلا سيما أن الآتى بهذا القرآن رجل أمى فى أمة أمية كانت فى أظلم عهود الجاهلية .

أضف إلى ذلك ما سجل القرآن على النبى ﷺ من أخطاء فى بعض اجتهاداته ومن عتاب تحس تارة بلطفه وأخرى بعنفه مثل قوله تعالى فى آية التوبة (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين .

وفى آية أخرى من سورة الأنفال (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)[١] وفى آية أخرى (يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم)[٢] سورة التحريم . وفى آية أخرى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) فى سورة عبس .

فلو كان هذا التنزيل كلامه ما سمح أن يسجل على نفسه ذلك العتاب كله ولكن هؤلاء الضالون المضلون سفهوا أنفسهم وزعموا رغم هذه البراهين الواضحة والأدلة القاطعة أن محمداً افترى القرآن على ربه وكذبوا وضلوا ضلالا بعيدا قال تعالى (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وصدق الله تعالى

---

(١) آية (٦٧) من سورة الأنفال . (٢) مفتتح وسورة التحريم .

إذ يقول « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ») .

الشبهة الثانية : (المعلم من البشر) لم ير بعضهم أن القول بالوحى النفسى يثبت بما يجدونه فى القرآن من الأخبار الماضية والمستقبلة . فزعموا أنه تلقى ذلك من معلميه من أهل الكتاب اتصل بهم فى أسفاره إلى الشام وغيرها ويذكرون منهم بحيرا الراهب .

وزعم بعضهم أنه كان يتلقى من بعض أهل الكتاب ومن ورقة بن نوفل بمكة ثم اقتبس كثيراً من القرآن من يهود المدينة حين انتقاله إليها . فالنبى صلى الله عليه وسلم فى زعمهم متأثر فى قرآنه بالكتب السابقة ومقتبس منها .

ونقول رداً على هذه الشبهة وإبطالا لها :

أولا : أن كل من أوتى حظاً من حسن البيان وذوق البلاغة لابد أن يفرق بين أسلوب القرآن وغيره من الأساليب فرقاً كبيراً يمثل ذلك الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق فلا يزال القرآن والحديث قائمين بيننا يناديان فى الناس بهذا الفرق البعيد إن كان لهم إحساس فى البيان أو ذوق فى الكلام ، ولو كان لما تدعيه هذه الشرذمة من الملاحدة شىء من الوجاهة لكان أولى الناس بأن يرفعوا بذلك هامتهم هم أولئك العرب الخلص الذين شافههم القرآن عند نزوله فإنهم كانوا أحرص الناس على تعجيز محمد للاعتبارات التاريخية المعروفة . فتارة يقولون (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف

أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا)[1] .

وكذا قول الله فيهم (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون)[2] ونحو ذلك كثير من عبارات التعجيز والأسئلة المحرجة التى كانوا يوجهونها له لأبطال حجته . لكن هؤلاء العرب ماقالوا مثل هذه الافتراءات بل كانوا أكرم على أنفسهم من أن يقولوها إيقاناً منهم بظهور المميزات الفائقة بكلام الربوبية عن كلام النبوة بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر فى شىء . ثم أن هذا القرآن لم يأت الناس من الخلف بل جاءهم من أوسع الأبواب ودخل عليهم من طريق العرب الخلص ذوى اللسن والبيان وتحداهم من الناحية التى نبغوا فيها وهى صناعة الكلام تلك الصناعة البيانية التى وقفوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم حتى صارت مجال تنافسهم وسبقهم وموضع فخرهم وتفوقهم شأن سائر معجزات الله تعالى التى لم تأت القوم إلا من الناحية المفهومة لهم كل الفهم ليظهر أمر الله واضحاً جلياً لا لبس فيه ولا غموض ولا شبهة ولا شكوك (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ن هذا نعلم والتاريخ يشهد بأن القرآن كلام الله وحده لا دخل لأحد فيه محمد ولا جبريل ، ولو كان مصدره محمداً أو اقتبسه من الأحبار والرهبان كما يقول أولئك المبطلون المغرضون . لأمكن لهؤلاء العرب المبرزين فى البيان أن يعرفوا أنه كلامه بما أوتوا من ملكة النقد وماوهبوا من نباهة الحس والذوق ثم لأمكنهم أن يجاروه ولو شوطاً قريباً إن لم يمكنهم مجاراته شوطاً بعيداً . لاسيما أن

---

(١) آية (٩٠ — ٩٤) سورة الإسراء (٢) آية (٨ — ٩) سورة الأنعام
(٣) آية (١٦٥) سورة النساء

القرآن قد اكتفى منهم فى معرض التحدى بأن يأتوا ولو بأقصر سورة من مثله أى بثلاث آيات قصار من بين تلك الآلاف المؤلفة التى اشتمل عليها الكتاب العزيز . ثم لا يخفى على أحد أن هؤلاء لم تكن لتعييهم تلك المساجلة وهم فرسان ذلك الميدان وأئمة الفصاحة والبيان . فلو كان الأمر من صناعة محمد صلى الله عليه وسلم وإنشائه كما زعموا فما بالهم وقد خرست ألسنتهم وخشعت للقرآن أصوات الأجيال كلها من بعدهم والمعروف للجميع أن الشخص الفذ النابغة فى أى عصر من العصور يستطيع أقرانه بيسر وسهولة أن يحاكوه مجتمعين ومنفردين فى الشىء القليل على فرض أنهم لم يستطيعوا معارضته فى الجميع أو الشىء الكثير أما زعمهم أنه كان يتلقى من بعض أهل الكتاب ومن ورقة بن نوفل بمكة ومن بحيرا الراهب حين سفره إلى الشام فى التجارة فهذا زعم باطل ومردود عليهم فالمتتبع لسيرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم تلك السيرة الطاهرة الصحيحة يعلم علم اليقين أن الرسول صلى الله عليه وسلم من يوم نشأته كان يكره مجالسة أهل الجاهلية وكان يحبب إليه الخلوة بنفسه مع ربه يتعبد على ملة أبيه إبراهيم فلما أكرمه الله بالرسالة زادت كراهيته لتلك الطوائف من المعاندين والمشركين حتى هاجر إلى المدينة فتضاعفت كراهيته كذلك ليهود المدينة فأى عقل يصدق أن أحداً يتلقى عن أعدائه الذين ناصبوه العداء بادىء ذى بدء وكيف يأخذ عنهم وهم يتربصون به الدوائر فى كل آونة وحين ، ثم إن الوقت الذى التقى فيه ببحيرا الراهب وبورقة بن نوفل لم يسمح بتعليم ولا بأخذ أقل مقدار من مثل القرآن كما زعموا كيف وقد سجل التاريخ تلك المقابلات المعدودة والمحدودة وهى شاهدة بصدق محمد وثبوت نبوته يقول الأمين دويدار فى كتابه (صور من حياة الرسول) مع شىء من التعديل فحين بلغ محمد صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة رغبت خديجة بنت خويلد فى أن يكون محمد هو الذى يسافر فى تجارتها إلى الشام وهى تعلم أن عمه أبا طالب حريص على أن

لا يبعد به كثيرا عن نطاق مكة ضنين به على كل سفر يطوح به فى البعد عن هـذا البلد الأمين فأخذت تتلطف وتحتال حتى أقنعت أبا طالب بأن يأذن لابن أخيه فى الرحلة إلى الشام مع غلامها ميسرة على أن تعطيه ضعف ما تعطى رجلا من قومه وكانت سنين مجدبة وأزمة شديدة فلم يلبث أبو طالب أن استجاب لها وعرض على ابن أخيه أن يذهب فى تجارة خديجة إلى الشام وقبل ما عرضه عليـه عمه وخرج فى مالها ذاك وخرج معه غلامها ميسرة وأعمامه يوصون به ويبالغون فى التوصية وانطلقت القافلة تسير فى الصحراء المترامية الأطراف وتمعن فى دروبها الوعرة فكلما أعياها السير وأجهدها الحر نزلت منزلا تستريح حتى إذا كانت فى أحد المنازل مرة نزل صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة قريبـاً من صومعة راهب فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال من هـذا الرجل الذى نزل تحت هـذه الشجرة فقال ميسرة هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال الراهب (بحيرا) ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى .

وحين وصلت القافلة إلى الشام باع صلى الله عليه وسلم سلعته التى خرج بها واشترى ما أراد ثم أقبل قافلا إلى مـكة ومعه ميسرة فلما قدم على خديجة باعت ما جاء به فربحت ضعف ما كانت تربح من قبل وضاعفت ما سمت له وحدث ميسرة سيدته بما رأى من ارهاصات النبوة وبما رأى من محمـــد صلى الله عليه وسلم أثناء رحلته من كرم الخلق وصدق الوفاء وحسن الصحبة وعظم الأمانة وبما لم يرمثله من صاحب قط فى أثناء رحلته وكانت خديجة رضى الله عنها امرأة شريفة نبيلة حازمة جلدة تحسن تصريف الأمور فى إحكام وروية وكانت من أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا وكان أشراف قومها يحرصون كل الحرص على الزواج منها ويبذلون فى ذلك الأموال ويمنون الأمانى ولكن خديجة

كانت تردهم جميعاً وتأبى عليهم مـا يريدون من ذلك ، وكأن الله سبحانه وتعالى كتب لها الكرامة وأراد بها الخير فألق فى نفسها أمنية كريمة وبعث فى قلبها عاطفة شريفة أحست بها نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به من شأن محمد صلى الله عليه وسلم ذهبت إلى بن عمها ورقة ابن نوفل وكان قد قرأ كتب النصرانية وعلم مما قرأ فيها أن نبيا سيظهر فى أرض العرب قد آن أوانه وأن إرهاصات النبوة توشك أن تظهر بين يدى هذا النبي وأدرك ورقة أن ما عليه محمد من شمائل فى الصافات وما يبدوا عليه من جلائل الآيات جدير بأن يجعله أهلا لهذه النبوة فأوحى إلى خديجة بأن محمد يوشك أن يكون هو هذا النبي فزاده ذلك فى نفسها مكانة وجال بخاطرها الرغبة فى أن تكون زوجاً له قالت نفيسة بنت منية (فأرسلتنى دسيساً إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام فقلت يا محمد ما يمنعك من أن تتزوج فقال مـا بيدى ما أتزوج به فقلت فإن كفيتك ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب فقال فمن هى قلت خديجه . قال ومن لى بذلك قلت على قال فأنا أفعل . فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه أن (أئت لساعة كذا وكذا ، أقول وبعد أن تم هذا الزواج الشريف وحـازت خديجة ذلك الشرف العظيم وجـاء آوان الوحى ونزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول ما نزل من القرآن وقال له أقرأ فقـال ما أنا بقـارىء ثلاث مرات وكان أخذه وغطه وقال له فى الثالثة اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الأنسان من علق الآيات إلى قوله تعالى (مالم يعلم) فرجع إلى خديجة يرتعد من شدة ما نابه من غطة الوحى وحكى لها ما حصل له اليوم فذهبت به خديجة الى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان أمرأ قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل

بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال يا ابن أخى ما ترى فأخبره عليه السلام خبر ما رأى فقال له ورقة . هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى . لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل ثم قال : يا ليتنى فيها جذعاً أى (شاباً جلداً) إذ يخرجك قومك : أى من بلادك التى نشأت بها . لمعاداتهم إياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم فعجب عليه السلام مما نسب لقومه مع مايعمله من حبهم له لاتصافه عندهم . بمكارم الأخلاق والأمانة وصدق القول حتى سموه بالصادق الأمين فقال: أومخرجى هم : قال : لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى : وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة أن توفى وهذا كل ما دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وورقة بن نوفل فتى أخذ عليه وتعلم منه وهو بعد هذه المقابلة الخاطفة توفى من توه وأما عن يهود المدينة فكانوا يناصبون رسول الله صلى الله عليه وسلم العداء من يوم أن حضر إليها إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى فكيف يتلقى عنهم كلا ما هو يعلم علم اليقين أنه كذب وافتراء وإثم وضلال وهو الملقب بالصادق الأمين كيف يكون ذلك وقد كان شأنهم معه الغدر والخيانة ونقض العهد والمواثيق وكان صلى الله عليه وسلم على غاية الحذر منهم فى كل آونة وحين وقد حفظه الله من كيدهم وغدرهم حتى أدى رسالته على الوجه الأكمل وصدق الله إذ يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) .

على أن الله جلت قدرته وتعالت حكمته قد تكفل بالرد المقنع على هؤلاء الملحدين المبطلين دفاعا عن نبيه ورسوله وما نسبوه إليه من أن معلمه

(١) آية (٦٧) سورة المائدة .

رجل من مكة فكذبهم الله بقوله تعالى وهو أصدق القائلين (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين)(١) قالوا ذلك حينما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غدواته وروحاته يقف عند رجل صانع ينظر إلى صنعته و يتفقدها قيل هو نجار وقيل حداد وهو رجل أعجمى يتكلم بالعبرانية فكيف يأخذ العربى عن العجمى ومن هو المعلم من البشر (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) .

(١) آية (١٠٣) سورة النحل

الباب الثانى

فى نظم القرآن وأسلوبه ومكيه ومدنيه

١ ــ الشبهة الأولى فى هذا الباب : قالوا إن الباحث الناقد يلاحظ فرقاً شاسعاً وتبايناً واضحاً بين أسلوبين فى القرآن لا تربط أحدهما صلة بالآخر مما يدفعه إلى الإعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثر ببيئات متباينة وإختلاف الأسلوبين ناتج من تطور فى أغراض صاحبه وأهدافه ، فمن ذلك أننا نشاهد أن القسم المكى من القرآن ينفرد بالعنف والسباب والوعيد والتهديد مثل ماورد فى سورة (تبت يدا أبى لهب وتب) وسورة (والعصر إن الإنسان لفى خسر) وسورة (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) ومثل قوله (فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد) ونحو ذلك كثير فى القسم المكى وذلك ناتج من كون بيئة المكيين يغلب عليها القسوة والشدة والصلف ، ولما كان المكيون أميين جهالا فأننا قد وجدنا القرآن المكى نازلا فى مستواه العلمى . فهو ينفرد ويختص بقصر السور والآيات ويخلو من التشريعات ومن المناظرات والبراهين العلمية والحجج . كما وجدناه يكثر فيه القسم بالمحسوسات كالليل والضحى والشمس والتين والزيتون . وذلك لأن الأذهان الساذجة الأمية تتعلق كثيراً بالمحسوسات ووجدنا به أشياء لاقيمة لها فى الذكر ولافائدة فيها كالحروف المقطعة فى أوائل بعض السور مثل (طسم) (كهيعص) (آلم) (حم) فهذه ونحوها قد أراد بها النبى فى زعمهم مجرد التهويل

والتخويف وإظهار القرآن أمام هؤلاء الأميين بمظهر الرموز والطلاسم العميقة السخيفة ، بينما وجدنا القسم المدنى من القرآن قد إمتاز بطول الآيات والسور وكثرة الأحكام والتشريعات والحجج والبراهين والمناظرات كما نجده قد خلا من القسم بالمحسوسات ومن السبـــاب والتهديد والعنف والشدة . أى أنه كان أرفع فى مستواه العلمى مستنيراً فى أسلوبه وقد نشأ ذلك من كون محمد ألتقى بيئة جديدة مثقفة مستنيرة وهى البيئة المدنية وقالوا كذلك إن السبب فى هذا التغيير الواضح والإنقلاب الشامل الملحوظ فى القسم المدنى هو أن النبى صلى الله عليه وسلم طرأ على دعوته تغيير كبير بعد هجرته إلى المدينة إذ دخلت السياسة فى الدين ونمت أطماعه فى الحكم والسلطان فبعد أن كانت دعوته فى مكة بالحكمة والموعظة الحسنة والمسالمة مع من لم يؤمن به وبدعوته إذ به فى المدينـة يصبح داعية حرب ورجل دولة ومعادياً محارباً للكتابيين من اليهود والنصارى بعد أن تخلى عن دعوته المكية وإنتقل إلى دعوة سياسية قومية عربية :

ونقول رداً على هذه الفئة الضالة وتلك الشرزمة الكاذبة ونقضاً لكلامهم من أصله : إن دعوى إنفراد القسم المكى بالعنف والشدة دعوى باطلة إذ أن ما يسمونه بالعنف والشدة موجود فى القسم المدنى كما هو موجود فى القسم المكى ، وإليك الأمثلة : منها قوله تعالى فى سورة البقرة المدنية (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) وقوله تعالى أيضاً فى السورة نفسها (إن الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) وفيها كذلك (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) وفى سورة آل عمران وهى مدنية قوله تعالى (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخـــذهم الله

بذنوبهم والله شديد العقاب . قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) . وقد اشتمل القرآن الكريم بقسميه المكى والمدنى منه على أنواع من الشدة والعنف فى بعض أحيانه لأن ضرورة التربية الرشيدة فى إصلاح الأفراد والشعوب وسياسة الأمم والدول تقتضى أن يمزج المصلح فى قانون هدايته بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والشدة واللين . ثم إن دعواهم إنفراد المكى بالشدة والعنف يفهم منه دعوى إنفراد المدنى باللين والصفح وخلو المكى من ذلك وهذا مفهوم باطل كمنطوقه وذلك لوجود ما بين السور المكية آيات كريمة تفيض ليناً وصفحاً وتقطر سماحة وعفوا بل تنادى بمقابلة السيئة بالحسنة اقرأ قول الله تعالى فى سورة فصلت وهى مكية (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . ومايلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)(١) وكذا قوله تعالى فى سورة شورى (فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)(٢) وكما فى قوله تعالى فى سورة الحجر المكية (ولقد أتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزوجا منهم ولا تحزن

(١) سورة فصلت (٣٣ — ٣٥) (٢) سورة الشورى (٣٦ — ٤٣)

عليهم واخفض جناحك للمؤمنين . وقل إنى أنا النذير المبين . كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون . فاصدع بما يؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون . ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين)(١) . وكذا قوله فى سورة الزمر المكية (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم)(٢) وغيرها كثير من السور المكية التى تفيض لينا وعفوا وصفحا .

أما مازعموه من أن فى القسم المكى سبابا ويريدون بالسباب معناه عندهم من القحة والبذاءة والخروج عن حدود الأدب واللياقة فهو إفك وإفتراء منهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

ونحن نتحداهم ونمعن فى التحدى على أن يأتوا بمثال واحد فى القرآن الكريم كله مكيه ومدنيه يكون من هذا اللون القذر الرخيص وهل يعقل أن القرآن الذى جاء يعلم الناس الأدب والعلم والحلم يخرج هو عن أصول الآداب إلى السباب كيف وقد حرم الله على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعدائهم المشركين فقال فى سورة الأنعام المكية (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله بغير علم) نعم إن فى القرآن الكريم كله لا فى القسم المكى وحده : تسفيها لأحلام المتنطعين الذين يصمون آذانهم ويغمضون أعينهم عن الحق ويهملون الحجج والبراهين وهو فى ذلك شديد عنيف . بيد أنه فى شدته وعنفه لم يخرج عن جادة الأدب ولم يعدل عن سنن الحق ولم يصدف عن سبيل الحكمة بل الحكمة تقتضى أن يشتد مع هؤلاء لأنهم يستحقون الشدة ومن مصلحتهم والرحمة بهم والخير لهم أن يشتد عليهم ليثوبوا لرشدهم

(١) أواخر سورة الحجر (٢) آية ٥٣ من سورة الزمر

ويرعووا عن باطلهم ، ويسيروا على هدى الدليل والحجة . أضف إلى ذلك أن هذا التقريع الحكيم تجده فى السور المدنية كما تجده فى السور المكية وإن كان فى المكى أكثر منه فى المدنى . لأن أهل مكة كانوا أشداء العارضة صعاب المراس مسرفين فى العناد والإباء لم يتركوا بابا من الشر إلا دخلوه على الرسول وأصحابه ولم يكفهم أن أخرجوه من بلده وأهله ليلا بل وجهوا إليه الأذى فى مهاجره : أما الدليل على أن فى السور المدنية تقريعاً عنيفا أيضا عند المناسبات فكما جاء فى سورة البقرة المدنية فى قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم)[1] .

وفى شأن المنافقين فى السورة نفسها قوله تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)[2] .

فكل هذه الآيات مليئة بالتوبيخ والتعنيف لأولئك الأراذل من البشر الذين ينفثون سمومهم فى بقية الخليقة ويفسدون المجتمع بسلاح ذى حدين هو سلاح النفاق والذبذبة) واقرأ كذلك فى هذة السورة نفسها فى شأن اليهود وأيات كثيرة من هذا الطراز تنقدهم وتنعى عليهم جرائمهم وتحمل عليهم حملة شعواء تقبيحاً لجناياتهم وجنايات أبائهم من قبل مثل قوله تعالى : (ضربت عليهم الذلة أين ماثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ومثل قوله

---

(١) آية ٦ ، ٧ من سورة البقرة (٢) الآيات من ٩ — ١٣ سوره البقرة

تعالى بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عبادة فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين . ومثل قوله فى شأن النصارى من سورة ال عمران المدنية (إذا قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم ناصرين) وقوله تعالى فيهم أيضا من هذه السورة (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم إزدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون .

وأما السور والآيات التى استدلوا بها على ذلك السباب الذى زعموه ووصموا به القرآن الكريم فى (سـورة تبت يد أبى لهب وتب) فهذه السورة غاية ما اشتملت عليه أنها إنذار ووعيد لأبى لهب وامرأته . جزاء ما أساء إلى رسول صلى الله عليه وسلم كما يدل عليه سبب نزول هذا السورة فقد أخرج الامام أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش ، حتى اجتمعوا فجعل الرجل منهم إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب . وقريش . فقال صلى الله عليه وسلم أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال فأنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب تباً لك ألهذا جمعتنا فنزلت تلك السورة (تبت يدا أبى لهب وتب) .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن عباس أن امرأة أبى لهب كانت تأتى بأغصان الشوك تطرحها بالليل فى طريق الرسول صلى الله عليه

وسلم . وروى عن ابن مجاهد أنها كانت تمشى بالنميمة بين الناس فهذه الأسباب مجتمعة تفيد أن السورة نزلت لمقابلة أبى لهب بما يستحق من إنذاره بالهلاك والقطيعة . وأن ماله ينفعه ولا كسبه . وأنه خاسر هو وامرأته وأن مصيرهما النار وبئس القرار : ولا ريب أن فى هذا الوعيد العنيف ردعا له ولأمثاله وتسلية لمن أصيب بأذاهم من الرسول وأصحابه . وذلك هو اللائق بالعدالة الإلهية والتربية الحكيمة الربانية .

وأما سورة (والعصر) فليس فيها سباب ولا ما يشبه السباب وكل ما عرضت له أنها جعلت الناس قسمين قسما غريقا فى الخسران وقسما نجا وفاز من هذا الخسران وهم الذين جمعوا عناصر السعادة الأربعة المذكورة فى تلك السورة : الإيمان الصادق والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر قال تعالى (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فهل رأيت فيها ظلا لسباب أو إقذاع كلا ولكن القوم لا يستحيون .

وأما سورة (ألهاكم التكاثر) فكل ما تشير إليه أن المخاطبين قد شغلتهم الدنيا عن الدين وألهتهم الأموال عن رب الأموال حتى انتهت أعمارهم وهم على هذا الحال فغدا سيسألون عن هذا النعيم ويعاقبون على إهمال شكره بعذاب الجحيم . فقل لى بربك فى أى زاوية من زوايا هذه السورة تحس فيها بسباب أو تشعر فيها بإقذاع .

وأما قوله تعالى فى سورة (والفجر) (فصب عليهم ربك سوط عذاب) فهو حكاية لما حل بالأمم السابقة كعاد وثمود حين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد : ليكون من هذه القصص وتلك الأخبار عبرة ومزدجر لأولئك الكفار . فلا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم لأن سنة الله فى الأمم واحدة وميزان عدالته قائم فى كل جيل وقبيل ، وقصارى القول

أن القرآن الكريم قائم كله على رعاية حال المخاطبين فتارة يشتد وتارة يلين تبعاً لما يقتضيه حالهم سواء المكي منه والمدني . بدليل إنك تجد في ثنايا السور المكية والمدنية ماهو وعيد وتسامح وتشديد وأخذ ورد وجذب وشد كما سبق لك في الأمثلة والشواهد الكثيرة . وأما ملاحظة أن أهل مكة كثر في خطابهم الشدة والعنف فذلك لما مرنوا عليه من الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والكيد لهم حتى أخرجوهم من ديارهم ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إليهم الأذى في مهاجرهم لكن القرآن الكريم كان في جملة ما تناولهم به بعيداً عن كل معاني السباب والإقذاع المزعوم نخاطبهم بالحكمة والأدب الكامل في الإرشاد والإقناع حاثا لهم على الصبر والعفو والإحسان . فانظر أيها العاقل كيف خاطب القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سورة الأنعام المكية حين قال (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإء المرسلين ، وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين إنما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) على أننا نلاحظ أن في آفاق الآيات والسور المكية ظاهرة باهرة تسكت كل معاند وتفحم كل مكابر في هذا الموضوع . وهي أن القسم المكي قد خلا خلواً تاماً من التشريع من قتال وجهاد ومخاشنة كما خلت أيامه في مكة على طولها من مقابلة القوم بمثل ما يأتون به من الأذى والمصاولة . فلم يسمع للمسلمين في تلك المدة صلصلة لسيف أو قعقعة لسلاح أو زحف على عدو . إنما كانت أخلاقهم الصبر والعفو والمجاملة والمحاسنة بالرغم من إيغال الأعداء في أذاهم ولجاجهم في عتوهم وأساهم سباً وطعناً وقتلا ونهباً ومهاترة ومصاولة ومكابرة ، وأما زعمهم أن القسم المكي قد اختص

بكل خصائص الأوساط المنحطة فهو زعم باطل ومردود عليهم من كل باب دخلوه وعلى أى وجه أرادوه لأنهم إن أرادوا بذلك ماتوهموه من انفراده بالشدة والعنف والسباب فقد علمت ما فيه من كذب وافتراء وجهالة بما جاء فى نظام القرآن الكريم من ترغيب وترهيب فى شطريه المكى والمدنى على سواء .

وإن أرادوا بانحطاطه الإشارة إلى قصر آياته . أو خلوه من التشريعات التفصيلية العملية فهذا لا يدل على الانحطاط الذى زعموه ، بل إن قصر الآيات والخلو من التشريعات لهما وجه آخر فقصر الآيات والسور فى القسم المكى لم يكن قانوناً شاملا فيه فإن فيه سورة الأنعام مثلا وهى طويلة كما أن طول الآيات والسور لم يكن كذلك قانوناً فى المدنى فإن فيه مثلا سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) وهى قصيرة فكلامهم لا يسلم به على عمومه . فإن أرادوا بذلك الكثرة الغالبة فهو صحيح غير أنه لا يدل على ما افتروه ورتبوه عليه . فإن قصر معظم السور المكية وآياتها وطول معظم السور المدنية وأيها لا يقطع الصلة بين قسمى القرآن مكيه ومدنيه ولا بين سور القرآن وآياته جميعاً . بل الصلة موجودة بأجلى معانيها كما يحسها كل صاحب ذوق سليم فى البلاغة والبيان فهى محكمة شائعة بين كافة أجزاء التنزيل . وقد أفتن العلماء وأشبعوا الحديث عن هذه المناسبات وما جاءت الآية بعد الآية والسورة بعد السورة إلا لما بينهما من شدة ارتباط وأوثق صلة وتجد ذلك فى غضون التفاسير العديدة لكتاب الله على أننا نلاحظ بعض أيات مكية موجودة بين أيات سور مدنية ونلاحظ أيات مدنية موجودة بين أيات سور مكية وبالرغم من ذلك فلا يكاد أحد يحس بأدنى تفاوت أو تفكك أو تنافر أو انقطاع بينهما بل يروعك ما بين الجميع من جلال الوحدة وكمال الاتصال وجمال التناسق والتساوق مما يجعل القرآن كله على طوله سلسلة واحدة محكمة العرى

متصلة الحلقات وعقداً رائعاً منتظم الحبات، وقانونا رصينا مترابط المبادىء والغايات ثم إن قصر الآيات والسور المكية لا يدل على مازعموه من اختصاص القسم المكى بالأوساط المنحطة فإن هذا الزعم يدل على قصر الفهم وضيق الأفق وتبلد القريحة والجهل بقوانين البلاغة والفصاحة فى الكلام العزيز (فالقصر فى السور والآيات مظهر من مظاهر الإيجاز، والإيجاز مظهر رقى المخاطب وآية فهمه وذكائه بحيث يكفيه من الكلام موجزه ومن الخطاب أقصره، أما من كان دون ذلك ذكاء وفهماً فلا سبيل إلى إفادته إلا بالإسهاب والبسط إن لم يكن بالمساواه والتوسط، ولهذا المعنى جاء القسم المكى قصيراً موجزاً فى معظمه، وجاء القسم المدنى طويلا مسهبا فى أكثره ويرجع ذلك إلى أن القرشيين كانوا فى مكة فى ذروة القبائل العربية فى الذكاء والألمعيه والفصاحة والبلاغة والشرف والشجاعة فلا بدع أن يخاطبهم القرآن بالقصير من سوره وآياته رعاية لحق قانون البلاغة والبيان، ولا يقدح فى مزايا المكيين هذه بأنهم كانوا أميين لم يستنيروا بثقافة المدنيين، فإن للثقافة والإستنارة ميداناً وللذكاء والتمهر فى البيان ميداناً. وأهل المدينة لم يكونوا على إستنارتهم ليبلغوا شأن قريش فى تلك الخصائص والمزايا. وقد كان منهم أهل كتاب درجوا على أن لا يستفيدوا إلا بالتطويل ولا يقتنعوا إلا ببسط الكلام. ومن هنا تعلم بطلان كذبهم وإفترائهم حين قالوا إن القرآن كان فى المكى كذا وفى المدنى كذا نتيجة لتأثر محمد بانحطاط أهل مكة فى القسم المكى، واستنارته بأهل المدينة فى القسم المدنى حتى جاء قرآنه قصيرا فى الأول طويلا فى الثانى.

وأما قولهم إن القسم المكى فى القرآن قد خلا من التشريع والأحكام فهو قول باطل أيضا ومردود عليهم لأن القسم المكى لم يخل جملة من التشريع والأحكام بل عرضها وجاء عليها ولكن بطريقة إجمالية وذلك أن مقاصد الدين خمسة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

والقدره خيره وشره ، وحفظ النفس . وحفظ العقل . وحفظ النسل وحفظ المال . وقد تحدث القسم المكي عن ذلك إجمالا فاقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الأنعام المكية : (قل تعالوا أتلوا ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

فهذه ثلاث آيات جمعت الوصايا العشرة لهذه المقاصد الخمسة التي هي أساس الدين .

ولا يخفى عليك أن آيات العقائد في القسم المكي ظاهرة واضحة وكثيرة شائعة ، وأما كثرة التفاصيل في تشريع الأحكام بالمدينة ، فليس نتيجة لزعمهم الباطل بل هو أمر لا بد منه في سياسة الأمم وتربية الشعوب . وهداية الخلق ذلك أن الطفرة حليفة الخيبة والفشل ، والتدرج حليف التوفيق والنجاح ، وتقديم الأهم على المهم واجب في نظر الحكمة . لهذا بدأ الله عباده في مكة بما هو أهم فبدأهم بإصلاح القلوب وتطهيرها من الشرك والوثنية وتقويمها بعقائد الإيمان الصحيح والتوحيد الواضح حتى إذا استقاموا على هذا المبدأ القويم وشعروا بمسئولية البعث والجزاء وتقررت في نفوسهم هذه العقائد الراشدة فطمهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق وقادهم إلى أصول الآداب وفضائل العادات ثم كلفهم بما لا بد منه من أمهات العبادات .

هذا ماكان بمكة . ولما مرنوا على ذلك وتهيأت نفوسهم للترقى والكمال بمرور الأيام والسنين وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة جاءهم بتفاصيل التشريع والأحكام وأتم عليهم نعمته ببيان دقائق الدين وقوانين الإسلام ومثل ذلك ما اتفق عليه الناس قديماً وحديثاً فى سياسة التعليم . من أنهم يلقنون البادئين فى مراحل التعليم الأولى أخف المسائل وأوجزها فيما يشبه قصار السور ومختصر القصص حتى إذا تقدمت بهم السن وتوفر لهم الاستعداد وعظم ، تلاطمت بهم بحور التعليم ثم فهموا واستناروا فهكذا كان (تدرج) نزول القرآن على خلق الله وسياسته فى تعليمهم .

أما ما زعموه من أن القسم المدنى قد جاء مليئاً بالتشريع وتفاصيل الأحكام وكان ذلك نتيجة لاختلاط محمد بأهل المدينة من الكتابيين المثقفين المستنيرين فهذا ينقضه أن القرآن قد جاء ليصلح عقائد أهل الكتاب وأخطاءهم فى التشريع وفى التحليل والتحريم وفى الأخبار والتواريخ سواء كانوا فى المدينة أو غيرها فكيف يأخذ المصيب من المخطىء وكيف يتلقى الأستاذ عن التلميذ فما يقول بذلك عاقل ثم اقرأ إن شئت قول الله تعالى فى سورة آل عمران (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون)[1] وقوله عز وجل (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة أو فاتلوها إن كنتم صادقين)[2] وقوله جلت قدرته

---

(١) آية (٦٤ — ٦٥) سورة آل عمران (٢) آية (٩٣) سورة آل عمران

فى سورة المائدة (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص)[١] وغيره كثير من الآيات الدالة على ذلك . على أن ما زعموه لو كان صحيحا لظهر أثر ذلك من أهل الكتاب المدنيين وثقافتهم فيمن حولهم من عرب أهل المدينة وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة . ولكانوا هم الأولى بهذه النبوة والرسالة ولسبق محمداً إليها كثير غيره من فصحاء العرب وتجار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب فى المدينة والشام أيما اختلاط . ثم إن القرآن كما سبق قد تحدى جميع العرب من مكيين ومدنيين بل البشرية جمعاء ، بل والإنس والجن ، فهلا كان أساتذة محمد أولئك المزعمون . يستطيعون أن يجاروه ولو فى مقدار سورة قصيرة واحدة كلا وألف كلا فما استطاعوا وما فعلوا ، وأما قولهم إن القرآن قد أكثر فى القسم المكى منه بالقسم بالمحسوسات لتأثره بالبيئة فى مكة لأن القوم فيها كانوا أميين لا تعدو مداركهم حدود المحسوسات فهذا قول باطل ومردود بما قدمنا من أن أهل مكة كانوا أرقى ذوقا وأعلى كعبا وأعظم ذكاء من أهل المدينة وأن الخطاب معهم كان ملحوظا فيه اشتماله على أسرار وخصائص لا يدركها إلا المتفوقون فى صناعة البيان وفصاحة اللسان . فلا يستقيم إذن ما زعموه من أن مدارك أهل مكة كانت لا تعدو المحسوسات ، والتاريخ خير شاهد على امتياز أهل مكة عن سائر القبائل على عهد نزول القرآن . ثم إن القسم بالمحسوسات فى القرآن الكريم كالضحى والليل والشمس والتين والزيتون وغير ذلك مما أقسم به ليس منشؤه انحطاط القوم كما زعموا . إنما منشؤه مراعاة مقتضى حال المخاطبين

---

(١) آية (٤٥) سورة المائدة .

وذلك أن القرآن كان وقتئذ بصدد علاج أخش العقائد فيهم وهى عقيدة الشرك وعبادة الأصنام ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة إلا بلفت عقولهم إلى ما فى الكون من شئون الله ومخلوقاته وإلا بفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الخالق المحيطة بهم ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يؤمنوا بالله وحده ما دام هو الخالق وحده قال عز من قائل (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فعرض بعض المخلوقات على أنظار الجاحدين بالتوحيد بعد إقرارهم أن ليس لها خالق إلا الله إلزام لهم بطرح الشرك وتوحيد الخالق وهذا مطمح نبيل أجاد القرآن فى أساليب عرض نعم الله عليهم من أجله ومن هنا أقسم الله بما أقسم به من الأمور المحسوسة كما ذكرنا من الضحى والليل وغيره ومن الأمور المعنوية كالقسم بالقرآن فى مثل قوله تعالى : (والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم . فحلف القرآن بأمثال هذه المحسوسات ليس دليلا على ساذجة المخاطبين وانحطاطهم وليس بالتالى سبيلا إلا الطعن فى القرآن بأنه من كلام محمد المتأثر بانحطاط البيئة كما يرجف المرجفون ويختلق الأفاكون .

على أن القسم بهذه الأشياء فيه إشارة إلى الأسرار العظيمة التى وضعها الله فى تلك الأمور التى أقسم بها حتى يصح أن يكون مقسما بها وتلك الأسرار لا يدركها إلا اللبيب الفاهم لأنها غير مشروحة ولا مفسرة فى القرآن فارجع إلى أسرار القسم بها فى كثير من كتب التفسير المطولة إن شئت والله يرشدك .

أما قولهم إن القسم المكى فى القرآن قد اشتمل على لغو من الكلام فى كثير من فواتح السور مثل : ألم ، كهيعص ، حم عسق ، وذلك يتنافى مع دعوى المسلمين بأن القرآن بيان للناس وهدى وأنه كلام الله فأى

بيان وأى هدى فى هذه الحروف المتقطعة وتلك الطلاسم الغامضة فما هى إلا ألفاظ من وضع كتبة محمد من اليهود تنبيها على انقطاع كلام واستئناف آخر أو يكون قصد منها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف . وهذا أيضا قول باطل من أصله لأسباب عدة .

أولا : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له كتبة وحى من اليهود أبداً فكتبة الوحى مشهورون غاية الشهرة وهم جميعا من أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم وها هو التاريخ حاكم عدل لا يرحم ولا يحابى أحداً وهو يشهد بذلك فليسألوه إن كانوا صادقين .

ثانيا : أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافى وصفه بأنه بيان للناس وهدى ورحمة فإن هـذه الأوصاف يكفى فى تحقق ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتبار تفصيله .

ثالثا : أن للعلماء فى تفسير فواتح تلك السور أقوالا عديدة وآراء سديدة أولها أن المعنى المقصود منها أمر غير معلوم لنا فهى من المتشابه الذى استأثر الله عز وجل بعلمه ولم يطلع عليها أحداً من خلقه وذلك لحكمة سامية هى ابتلاؤه سبحانه وتمحيصه لعباده حتى يميز الخبيث من الطيب وصادق الإيمان من المنافق . بعد أن أقام لهم أعلام بيانه ودلائل هدايته وشواهد رحمته فى غير تلك الفواتح من كتابه العزيز بين آيات وسور كثيرة لا تعتبر تلك الفواتح فى جانبها إلا قطرة من بحر . فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم ولو لم يفهموا معانيها ثقة منهم بأنها صادرة من لدن حكيم عليم .

« وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة

وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله .

ثانيهما : أن المعنى المقصود منها أن فاتحة كل سورة اسم لتلك السورة التى أفتتحت بها واستدلوا بآثار تعيد ذلك منها ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (يس قلب القرآن) وقوله (من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح) .

ثالثها : أنها نزلت للإعجاز ولبيـــان أن المقصود من ذلك هو إفهام المخاطبين أن الذى سيتلى عليهم من الكلام الذى عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله إنما تركب من مثل هذه الحروف التى فى الفواتح وهى معروفة لهم .

رابعها : أن المقصود منها تنبيه السامعين وإيقاظهم وذلك أن قرع السمع فى أول الكلام بما يعي النفوس فهمه من غرائب الأمور دافع لها على أن تصغى وتتيقظ وتتأمل وتزداد إقبالا فهى كوسائل التشويق التى تعرض فى مقدمة الدرس على منهج التربية الحديثة فى التعليم ، وقال بعضهم : إن هذه الحروف ليست بدعا فى القرآن ولا نزلت هملا فيه إنما هى جاءت موافقة لبعض إصطلاحات اليهود والنصارى فى كتبهم . فاليهود كانوا أيام نزول القرآن يصطلحون فيما بينهم على إعداد الجمل المعروفة اليـــوم فى الحروف العربية فيجعلون الألف بواحد والباء باثنين والجيم بثلاثة والدال بأربعة وهكذا مارين على الحروف الأبجدية . إلى الياء بعشرة والكاف بعشرين وهكذا إلى القاف بمائة والراء بمائتين وهكذا إلى الغين بألف فقديماً كان استعمال الرموز فى أهل الديانات والكتب السماوية تصرح تارة وترمز أخرى والرموز والإشارة من المقاصد السامية والمعانى والمغازى الشريفة. والقرآن كتاب سماوى جاء بما جاءت به الكتب قبله فكيف يعجبون من وجود تلك الحروف فى القرآن وهى موجودة فى كتبهم وإصطلاحاتهم .

وقد دلت بنفسها دلالة واضحة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدقه فقد نطق بها ، وهى أسامى للحروف مع أنه أمى لم يقرأ ولم يكتب ومن المعروف أن النطق بأسامى الحروف من شأن القـــارىء المتعلم وحده لا سبيل للأمى إلى معرفتها ولا النطق بها. فإتيان محمد بها وترديده لها دليل مادى على أنه لا يأتى بهذا القرآن من تلقاء نفسه إنما يتلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم إن إستعمال الرموز هذه موجود كذلك عند النصارى فقد اتخذوا من الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن فكانوا يرمزون بلفظ (أكسيس) لهذه الجملة (يسوع المسيح بن الله المخلص) فالألف من أكسيس هى الحرف الأول من لفظ (يسوع) والكاف هى الحرف الأول من لفظ (كرتسوس) المسيح وهكذا باقى الحروف .

فإذا كان هذا من طبائع الأمم التى أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها ونزل القرآن لجميع النـاس من عرب وعجم كان لابد أن يكون القرآن منهجاً تستسيغه الأمم ويكون مما يألفون ويفهمون ، على أن النسبة بين الرموز التى فى فواتح السور وبين رموز الجمل عند اليهود ورموز النصارى نسبه ضئيلة جداً ، وبهذا يتبين لك بطلان اعتراض هؤلاء الملحدين على هذه الحروف وتلك الرموز ، وإليك دليلا قاطعاً يثبت لك أنهم كانوا يستعملون تلك الرموز فى حساب الجمل عندهم .

قال بن عباس رضى الله عنه (مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو سورة البقرة : « آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ثم أتى أخوه حى بن أخطب وكعب بن الأشرف فسألوه عن (آلم) وقالوا : ننشدك الله الذى لا إله إلا هو أحق أنها أتتك من السماء . فقال النبى صلى الله علية وسلم : نعم كذلك نزلت . فقال حى : إن كنت صادقاً إنى لأعلم أجل هذه الأمة من السنين . ثم قالوا : كيف ندخل

فى دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الجمل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم فقال حى : فهل غير هذا . فقال : نعم (المص) فقال حى : هذا أكثر من الأول هذا مائة وإحدى وستون سنة فهل غير هذا . قال : نعم (الر) فقال حى : هذا أكثر من الأول والثانى فنحن نشهد إن كنت صادقا ما ملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة . فهل غير هذا ؟ فقال : نعم (المر) قال حى فنحن نشهد أنا من الذين لا يؤمنون ، ولا ندرى بأى أقوالك نأخذ فقال أبو ياسر أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبينوا أنها كم تكون فإن كان محمد صادقا فيما يقول إنى لأراه سيجتمع له هذا كله فقام اليهود . وقالوا اشتبه علينا أمرك كله فلا ندرى أبالقليل نأخذ أم بالكثير ، فبهذا وغيره تعرف أن حساب الجمل طريقة كانت متعارف عليها عند اليهود وهو نوع من الرموز الحرفية فكانت هذه الحروف لابد من نزولها ليأخذ فى فهمها كل مأخذ ويذهب الفكر فيها كل مذهب وقد ذهب العلماء فى معنى هذه الحروف مذاهب شتى وأكثروا فيها القول ولا مجال لسرد ماقالوه فى هذا المختصر .

وأما قولهم إن القسم المكى فى القرآن قد خــلا من الأدلة والبراهين فنقول لهم : لا إنه ملىء بالأدلة مدعم بالحجج والبراهين حافل بأقوى وأعظم الأدلة على عقيدة الإسلام فى الإلهيات والنبــوات . والسمعيات . فأنصت إليه فى سورة (المؤمنون) المكية وهو يرفع قواعد التوحيد ويزلزل بنيان الشرك إذ يقول : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون[1] ويقول فى سورة الأنبياء المكية : (لو كان فيهما آلهة إلا الله

(١) آية ٩١ سورة المؤمنون .

لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)
أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) ثم اقرأ قوله تعالى وهو يدلل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فى سورة العنكبوت المكية إذ يقـــول :
(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون .
بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون . وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . وقوله فى سورة ق[٣] المكية (والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب . إءذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) الآيات إلى قوله أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد . ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد .

ثم قوله فى سورة المؤمنون المكية (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون[٤] . ثم تدبر هذه الآيات التى أقامها لتقرير اقتداره على البعث بعد الموت وانظر إليه حين يقيم الدليل العقلى على البعث والجزاء إذ يقول فى سورة السجدة المكية (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا

---

(١) آية (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) من سورة الأنبياء .
(٢) آية (٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١) من سورة العنكبوت .
(٣) من أول السورة إلى آية (١٦) (٤) آية (١١٥) سورة المؤمنون .

منها أعيدوا فيها) إلى قوله تعالى (إنا من المجرمين منتقمون) إلى غير ذلك من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة التى لا تكاد تخلو منها سورة من السور المكية فكيف يصح لهؤلاء المضلين .

القول بعد ذلك بأن القسم المكى قد خلا من الأدلة والبراهين (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) .

الشبهة الثانية فى هذا الباب : هى قولهم إن القرآن يثبت أن دعوة محمد ليست عامة للإنسانية بل هى قومية عربية . وانتشارها بين غير العرب إنما هو نتيجة الفتح الذى قام على أساس من الأطماع السياسية والاقتصادية . ومما استدلوا به على ذلك قوله تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها) آية ٩٢ فى الأنعام .

وقوله تعالى (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزلنا علينا الكتاب لكنا أهدى منهم : الآية) الأنعام آية ١٥٦ — ١٥٧ وقوله فى سورة يونس (ولكل أمة رسول) آية ٤٧ وقوله تعالى فى سورة يوسف (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) آية ٣ وقوله فى سورة إبراهيم (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) آية ٤ وفى سورة النحل (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)

آية ٨٩ وقوله (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها) آية ٧ سورة الشورى .

وقوله تعالى (فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) آية ٤٣-٤٤ من سورة الزخرف وقوله تعالى فى سورة آل عمران (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) آية ١٦٤ وقوله فى سورة التوبة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) آية ١١٩ .

أما الشبهة الثالثة : فى هذا الباب فهى فى إعجاز القرآن . زعموا أن إعجاز القرين إنما هو فى نظمه فقط . ولكن المسلمون ذهبوا يلتمسون للقرآن الشمول من كل وجه وحاولوا أن يجدوا فيه إعجازاً إلهيا فى العقيدة وفى الشريعة وفى الفلسفة وفى العلم الحديث مع أن التاريخ الإسلامى يجهل مثل هذا التفكير ومثل هذه المحاولات والقدماء من المسلمين أجمعوا على أن إعجازه هو فى نظمه حسب .

ونقول رداً على هذه الشبهة من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية[1] مع شيء من التحوير والتعديل فى العبارة والاختصار فى ذكر الأدلة يقول رحمه الله إن القرآن الكريم لم يثبت فيه خصوصية لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالعرب دون غيرهم من بقية البشر بل على العكس فقد أثبت عمومها لجميع البشر كافة عامة بل للأنس والجن وذلك بالنصوص الصريحة

(١) أنظر الجواب الرجيح فى الرد على من بدل دين المسيح .

نقلا وبالأدلة العقلية التى لا يستطيع عاقل إنكارها . فأما قول هؤلاء المبطلين المعطلين من المبشرين والملحدين ومن سار على نهجهم من أنها خاصة بالعرب وهم غير مطالبين باتباعها فهو قول باطل واستدلالهم بالآيات التى أوردوها أعظم منه بطلانا ولا حجة لهم فى هذه الآيات وإنما يدل ذلك على سوء فهمهم وخبث طويتهم وقصور عقولهم وضيق أفقهم فى فهم هذه الآيات على أننا نقول لهؤلاء القوم الذين ادعوا ذلك من يهود أو نصارى أو دهريين أو ملحدين أو غيرهم نعم إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد أرسل إلى جاهلية العرب وبلسانهم لكن كانت رسالته عامة إلى جميع الأمم من عجم وعرب بل للثقلين جميعا وادعاؤهم أنهم غير مطالبين باتباعه فهذه الأخرى دعوى باطلة وهى ذات شقين .

الأول : إما أن يقولوا إنه بنفسه لم يدع أنه أرسل إليهم ولكن أمته هى التى ادعت له ذلك وإما أن يقولوا إنه ادعى أنه أرسل إليهم وهو كاذب فى هذه الدعوى وكلامهم فى أول كتاب ابن تيمية (الجواب الصحيح فى الرد على من بدل دين المسيح) يدل على الشق الأول . وفى آخره قد يقال إنهم أشاروا فى كلامهم إلى الشق الثانى . لكنهم فى الحقيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب وإنما أنكروا رسالته إليهم ، فأما رسالته للعرب فلم يصرحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه وإن كان ظاهر ألفاظهم يعطى تصديقهم له فيما يوافق أقوالهم وتكذيبه فيما يخالفها ونحن نقول إنه لا يصح لهم الاحتجاج على ما قالوه أو على صحة دينهم بشىء مما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ولا بشىء من القرآن بأى وجه من الوجوه وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين التى يحتجون بها فهى حجة عليهم وليس فيها حجة لهم ولو لم يبعث محمد صلى الله عليه وسلم لجميع الأمم وينص القرآن

بصريح آياته على أن من يطلب ديناً غير دين الإسلام فلن يقبل منه وهو فى الاخرة من الخاسرين وأن هذا الدين قد نسخ وأبطل كل ما قبله من الأديان قال تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)[١] وقوله (إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم)[٢] أى ما اختلفوا فى الدين الإسلامى إلا من بعد ما علموا أنه يجب عليهم الدخول فيه بما تضمنته كتبهم المنزلة إليهم من قبل وذلك لمجرد البغى والحقد والحسد فكيف والكتاب الذى جاء به موافق لسائر كلام الأنبياء عليهم السلام فى إبطال دعواهم وقولهم بالتثليث ثم إن الكتب السماوية كلها قد جاءت أول ما جاءت به هو توحيد الله عز وجل وأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له شريك فى خلقه ولا فى ملكه قال تعالى : (ما اتخذ من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)[٣] على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءت به الأنبياء قبله وصريح العقل كلها براهين قطعية تدل على فساد عقيدتهم وأنه لا يصح لهم الاحتجاج بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لأنه لا يجوز أن يحتج بكلام محمد صلى الله عليه وسلم لمن يكذبه فى كلمة مما جاء به وكذلك كلام سائر الأنبياء ونقول لهم على كل تقدير سواء أقروا بنبوته إلى العرب أو إلى غيرهم أو كذبوه فى قوله أو سكتوا عن هذا وذاك أو صدقوه فى بعض ما قال دون بعض إن احتجاجهم على صحة ما يخالفون فيه المسلمون مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح بوجه من الوجوه فقولهم إنه لم يرسل إليهم بشىء من القرآن قول باطل إذ أن

---

(١) آية ٨٥ سورة آل عمران . (٢) آية ١٩ سورة آل عمران .
(٣) آية (٩١) سورة المؤمنون .

الكتب السماوية التي نزلت قبله نصت على نعوته وأوصافه وأمرت من يدركه بإتباعه فلا حجة لهم بشيء منها بل كلها مع المعقول حجة عليهم وهذا بخلاف المسلمين فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب جميعاً بما جاءت به الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم لأن المسلمين يقرون بنبوة موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي أرسله وهذا أصل دين المسلمين فمن كفر بنبي واحد أو بكتاب واحد فهو عندهم كافر، بل من يسب نبياً من الأنبياء فهو كافر مباح الدم قال تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) وقال تعالى (ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) الآية . وقال : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) . فقد فصل القرآن بعد أن أجمل لئلا يظن ظان أن مجرد دعوى الإيمان بالغيب ينفع وإن لم يؤمن بما أنزل على محمد وعلى من قبله فالإيمان بالغيب لا يتم إلا بالإيمان بجميع ما أنزل الله ، فالمسلمون لا يجيز أحد منهم تكذيب شيء مما أنزل على من قبل محمد صلى الله عليه وسلم لكن الاحتجاج به يحتاج إلى ثلاثة أمور :

١ — ثبوت ذلك عن الأنبياء .

٢ — صحة ترجمته إلى اللسان العربي أو اللسان الذي يخاطب به . لأن كلام هذه الكتب كان بالعبرانية .

٣ — تفسير ذلك ومعرفة معناه ، لهذا كان المسلمون لا يكذبون بشيء

مما جاء به أحد الأنبياء لكن قد يكذبون الناقل عنهم . أو من يفسرون المنقول عنهم بما أرادوه بمعنى آخر على وجه يخالف معناه الحقيقى وهذا بخلاف تكذيب نفس النبي فإنه كفر صريح .

أما أهل الكتاب فقد تبين أنه لا يتم مرادهم إلا بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله ، ومتى كذب الإنسان بكلمة واحدة مما أخبر به من قال إنه رسول الله بطل الاحتجاج بسائر كلامه لذلك كانت حجة هؤلاء التى يحتجون بها داحضة ، لأن الذى يقول إن هذا رسول إما أن يكون صادقا فى جميع ما يخبر به عن الله وإما أن يكون كاذبا ولو فى كلمة واحدة، فإن كان صادقا امتنع أن يكذب على الله فى شيء مما يبلغه عن الله فإن من كذب على الله ولو فى كلمة واحدة كان ممن افترى على الله الكذب ولم يكن رسولا من رسل الله ويكون من المتنبئين الكذابين ومثل هذا لا يجوز أن يحتج بخبره عن الله عز وجل ، وإن كان كاذبا ولو فى كلمة واحدة أو مشكوكاً فى صدقه فيها امتنع مع ذلك أن يقروا بأنه رسول الله وكان احتجاجهم بما قاله كاحتجاجهم بما قاله كل المتنبئين الكذابين أو المشكوك فى صدقهم . ومعلوم أن من عرف كذبه على الله أو شك فى صدقه علم أنه ليس برسول الله بل عرف كذبه كما عرف كذب مسيلمة الكذاب وسجاحى والأسود العنسى وطليحة الأسدى وكما عرف كذب (مانى) وأمثاله من المتنبئين الكذابين كذلك من يشك فى صدقه بأن صدر منه الكذب ولو خطأ لم يجز تصديقه فى سائر ما يخبر به عن الله لأن الرسول إنما يكون رسولا إذا كان صادقاً لا يكذب كما يستحيل عليه الخطأ لأنه معصوم فإن كل من أرسله الله لابد أن يكون صادقا فى كل ما يبلغه عن الله وهذا أمر اتفق عليه كلهم المسلمون واليهود والنصارى وغيرهم ممن أنزل إليهم كتاب فقد اتفقوا الناس كلهم جميعاً على أن الرسول لابد أن يكون صادقاً

معصوماً فيما يبلغه عن الله فلا يكذب على الله لا خطأ ولا عمداً فإن مقصود الرسالة لا يحصل بدون ذلك كما قال موسى لفرعون (يافرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق أن لا أقول على الله إلا الحق) وفى رواية حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) وكذلك قوله تعالى عن خاتم الأنبياء : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) وقوله تعالى: (وإذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى) وأياً ما كان فإن المقصود هنا أن احتجاجهم بما أوردوه لا يصح بوجه من الوجوه لأنه إن كان رسولا صادقاً فى كل ما جاء به ، فقد علم أنه جاء بما يخالف عقائد هؤلاء وأنه أرسل إلى الناس جميعاً كما ثبت ذلك فى قوله تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو) الآية (١) وإن قالوا فى كلمة واحدة مما جاء به إنها باطلة فقد كذبوه ومتى كذبوه أو شكوا فى كلمة واحدة كانوا مكذبين له فى قوله (إنى رسول الله اليكم جميعاً) وكان كاذباً فى تبليغ ماأنزل إليه ومن كان كاذباً فى قوله إنى رسول الله لم يكن من الأنبياء والمرسلين ولم يكن قوله حجة البته وعلى هذا تبين أنه إن لم يقروا لمن ذكر أنه رسول الله بأنه صادق فى كل مايبلغه عن الله معصوم من الكذب عمداً أو خطأ لم يصح لهم الاحتجاج بقوله : وهذا الأصل يبطل قول عقلاء أهل الكتاب ومن سار على نهجهم من الملحدين والمبطلين ويكون لقول جهالهم أعظم إبطالا ، على أن أكثر عقلاء أهل الكتاب يعظمون محمداً صلى الله عليه وسلم ويجلونه لما دعا إليه من توحيد الله عز وجل وما نهى عنه من عبادة الأوثان ولتصديقه التوراة والإنجيل والمرسلين

---

(١) آية ١٥٨ من سورة الأعراف .

قبله ولما ظهر من عظمة القرآن الذى جاء به ومحاسن الشريعة التى جاء بها وفضائل أمته التى آمنت به ولما ظهر عليه من الآيات والمعجزات والبراهين لكن للأسف مع ذلك كله يقولون إنه بعث إلى غيرنا ونحو ذلك مما قالوه من أنه ملك عادل وله سيادة عادلة وقد حصل علوماً من أهل الكتاب وغيرهم ، ومهما قالوا من ذلك المدح وتلك الصفات الحميدة فإنهم لا يكونون بذلك مؤمنين به ولا يسوغ لهم ما قالوه (من أنه أرسل إلى العرب خاصة فإنه قد عرف بالتواتر الذى يعلمه جميع الأمم من جميع الطوائف أنه قال صلى الله عليه وسلم إنه رسول الله إلى جميع الناس وأن الله أنزل عليه القرآن وأنه أرسله الله هدى ورحمة للناس كافة بل للإنس والجن فضلا عن اليهود والنصارى وغيرهم من عجم وعرب) فإن كان صادقاً فى قوله فإن من كذبه فى كلمة واحدة فهو كافر .

وإن لم يكن صادقاً فيما يقول فقد كذب على الله ومن كذب على لم يكن رسولا فلا يحتج بشىء من أقواله فإن قالوا نحن نقصد بذلك بيان تناقضه وأن كلامه يناقض بعضه بعضا ، فنقول لهم وهذا أيضاً يستلزم أنه ليس رسولا فلا يصح لكم الإحتجاج بشىء مما جاء به وإن كان ولله الحمد والمنة قوله صلى الله عليه وسلم يصدق بعضه بعضاً ويصدق قول الأنبياء قبله وأن قولهم جميعاً يصدق صريح العقل فلا يتناقض شىء من الحق المعلوم بسمع أو عقل ، إذا تبين هذا نقول بعد ذلك لمن قال إن محمداً قد أرسل إلى العرب وحدهم دون غيرهم من أهل الكتاب لا فإنه من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله وبالنقل المتواتر الذى هو أعظم تواتراً مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهما وبالقرآن المتواتر عنه صلى الله عليه وسلم وبسنته المتواترة وسنة خلفائه الراشدين من بعده أنه صلى الله عليه وسلم ذكر أنه أرسل إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى كما ذكر أنه أرسل إلى

الأميين من العرب وغيرهم بل ذكر أنه أرسل إلى جميع بنى آدم عرب وعجم من الروم والفرس والترك والهند والبربر والحبشة وسائر الأمم بل أنه أرسل إلى الثقلين الإنس والجن جميعاً وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه صلى الله عليه وسلم والتى اتفق على نقلها عنه أصحابه مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم وقد صحبه عشرات الألوف ممن لا يحصى عددهم على الحقيقة إلا الله تعالى ونقل ذلك عنهم التابعون وهم أضعاف أضعاف الصحابة عدداً ثم نقل ذلك عنهم قرناً بعد قرن إلى زماننا مع كثرة المسلمين وانتشارهم فى مشارق الأرض ومغاربها وقد أخبر المعصوم صلى الله عليه وسلم عن ذلك قبل أن يكون فقال فى الحديث الصحيح (زويت إلى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها) وكان كما أخبر فبلغ ملك أمته طرفى المعمورة مشرقاً ومغربا وانتشرت دعوته فى وسط الأرض كالإقليم الثالث والرابع والخامس يعنى فى الجزيرة العربية وما حولها من مناطق الشرق الأوسط وذلك لأنهم أكمل الناس عقولا وأخلاقا وأعدلهم أمزجة بخلاف طرفيها جنوباً وشمالا فهؤلاء قد نقصت عقولهم وأخلاقهم وانحرفت أمزجتهم أما أهل الجنوب فإنه لقوة الحرارة احترقت أخلاطهم فاسودت ألوانهم وتجعدت شعورهم وأما أهل الشمال فلشدة البرد لم تنضج أخلاطهم بل صارت نية فأفرطوا فى سبوطة الشعر والبياض البارد الذى لا يستحسن . ولهذا لما ظهر الإسلام غلب أهله على أوسط المعمورة وهم أعدل بنى آدم وأكملهم كما أن النصارى الذين تربوا تحت ذمة المسلمين أكمل من غيرهم من باقى النصارى عقولا وأخلاقا .

وعلى كل حال فإن المقصود هنا أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان بالله ورسوله وبما جاء

به كما دعا من لا كتاب لهم من العرب وسائر الأمم وهو الذى أخبر الله تعالى يكفر من لم يومن به من أهل الكتاب وغيرهم قال تعالى (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً) (١) وهو الذى أمر بجهادهم وقتالهم إن لم يؤمنوا به فقد دعاهم بنفسه ونوابه إلى هذا الإيمان وحينئذ فقولهم أنه لم يأت إلينا بل إلى جاهلية العرب وسواء أرادوا بذلك أن الله بعثه إلى العرب فقط أو أرادوا أنه أدعى أنه أرسل إلى العرب فقد علم جميع الطوائف أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به وذكر أن الله أرسله اليهم وأمره بجهاد من لم يؤمن به منهم، أما اليهود فإنهم كانوا جيرانه فى الحجاز فى المدينة وماحولها وخيبر وغيرها . فالمهاجرون والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيف ولا قتال بل لما ظهر لهم من براهين نبوته ودلائل صدقه آمنوا به وقد حصل لهم من الأذى فى سبيل هذا الإيمان ماهو معروف فى كتب السيرة الصحيحة والتفاسير المعتمدة - وقد آمن به فى حياته كثير من اليهود والنصارى بعضهم من مكة وبعضهم بالمدينة وكثير منهم فى غير مكة والمدينة واقرأ - إن شئت - قول الله تعالى الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) (٢) فحينما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن سلام والله لقد عرفت محمداً أى بأوصافه ونعوته فى التوراة والإنجيل وأنه نبى حقاً كما أعرف ابنى ومعرفتى لمحمد أشد، هذا فلما قدم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة عاهد لمن لم يؤمن به من اليهود عهداً، ثم نقضوا العهد فأجلى بعضهم لمحاربته لله ورسوله وقد قاتلهم المرة بعد المرة فقاتل بنى النضير وأنزل الله فيهم سورة الحشر وقاتل بنى قريظة عام الأحزاب وذكر الله فيهم سورة الأحزاب وقاتل قبلهم بنى قينقاع وبعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة

---

(١) آية (١٣) من سورة الفتح

(٢) آية (٤٦) من سورة البقرة

الرضوان الذين بايعوه تحت الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة ففتح الله عليهم خيبر وأنزل الله تعالى سورة الفتح يذكر فيها ذلك ، فكيف بعد ذلك يقال إنه لم يرسل إلا لمشركى العرب وهذه هى حال اليهود معه .

وأما النصارى ، فإن أهل نجران الذين هم باليمن حينما قدم عليه وفدهم وكانوا ستين راكباً وناظرهم فى مسجده صلى الله عليه وسلم وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران ولما ظهرت حجته عليهم وتبين لهم أنه رسول الله إليهم وإلى غيرهم أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة فقال تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)(١) فلما دعاهم إلى المباهلة طلبوا منه أن يمهلهم حتى يتشاوروا فلما تشاوروا قال بعضهم لبعض أنتم تعلمون أنه نبى وأنه ما باهل قوم نبياً إلا نزل بهم العذاب فاستعفوا واعتذروا له عن المباهلة وصالحوه وأقروا له بالجزية عن يد وهم صاغرون ، لما خافوا من دعائه عليهم واعلمهم أنه نبى دخلوا تحت حكمه كما يدخل أهل الذمة فى بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله وهم أول من أدى الجزية من النصارى واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصارى وكتب له كتاباً مشهوراً يذكر فيه شرائع الدين فكانوا فى ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو بن حزم رضى الله عنه وقصته مشهورة متواترة نقلها أهل السير والتفسير والفقه والحديث وأصل حديثهم معروف فى الصحاح وفى السنن ففى البخارى ومسلم عن حذيفة وأخرج مسلم عن عن سعد بن أبى وقاص قال لما نزلت هذه الآية (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) .

دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال.

---

(١) آية ٦٣ من سورة آل عمران

اللهم هؤلاء أهلي وفى البخارى عن حذيفة بن اليمان قال جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه فقال أحدهما لصاحبه لاتفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا فلا نفلح نحن ولاعقبنا من بعدنا قالا : إنما نعطيك ماسألتنا وأبعث معنا رجلا أميناً فلاتبعث معنا إلا أميناً . قال : لأبعثن معكم رجلا أميناً حقاً . قال : فاستشرف لهـا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قم ياأباعبيدة بن الجراح فلماقام قال رسول الله هذا أمين هذه الأمة .

والأحاديث والآثار الصحيحة فى هـذا كثيرة والتاريخ خير شاهد وأعدل حاكم على ذلك كله ، فكيف يقال بعد ذلك إنه صلى الله عليه وسلم لم يرسل إلا لجاهلية العرب فقط، كلا وألف كلا فما هذا إلا إفك مفترى وما لهم به علم . وأما قولهم إن إنتشار دعوته بين غير العرب إنما كان نتيجة الفتح الذى قام به على أساس من الأطماع السياسية والإقتصادية فنرد عليهم بأن مازعموه باطل من أصله فإنه صلى الله عليه وسلم وأصحابه مادخلوا بلداً فاتحين إلا فتحا إسلامياً بدليل أنه كان فى بادىء الأمر يعرض على أهل هذا البلد الإسلام والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فإن أجابوه فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وإلا قاتلهم أو طلب الجزية منهم فأى مطمع له فى ذلك إلا دعوتهم إلى توحيد الله عز وجل وترك عبادة الأصنام ونشر السلام والأمان والعدل فى ربوع الأرض ، والتاريخ فى كل زمان ومكان يشهد على أنه صلى الله عليه وسلم انتقل إلى الرفيق الأعلى ولم يترك وراءه إلا أشياء قليلة لا تذكر مثل ناقتـه البيضاء والدرع المرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعا من شعير على أنه صلى الله عليه وسلم قال (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ماتركناه صدقة) وقد عاش صلى الله عليه وسلم طول حياته فى كفاف من العيش وكان يقول : اللهم اجعل عيش آل محمد كفافاً . ثم إنه كان إذا فتح بلدا من البلدان ولى أمر هذا البلد واحدا

ممن أسلم منهم ثم ينتقل إلى غيره وهكذا كانت فتوحاته الإسلامية وفتوحات خلفائه من بعده فقد نزههم الله جميعا عن قول المبطلين وافتراءات الملحدين .

أما عن الآيات التى استدلوا بها على أن رسالته صلى الله عليه وسلم كانت خاصة بالعرب فليس فى هذه الآيات ما يدل على هذه الخصوصية المزعومة ولكن لسوء فهمهم وضيق أفقهم وخبث طويتهم يريدون تفسير هذه الآيات حسب أهوائهم وضلالهم . وسنبين لك فى هذا المقام ماتدل عليه هذه الآيات باختصار فنقول وبالله التوفيق .

إن آية الأنعام التى ذكر فيها (ولتنذر أم القرى ومن حولها) فالمراد من أم القرى مكة المكرمة وخصها بالذكر لكونها أعظم القرى شأناً ولكون أول بيت وضع للناس للتعبد موجود فيها ولكونها قبلة هذه الأمة ومحل حجهم فالإنذار لأهلها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض جميعاً والمراد بمن حولها جميع أهل الأرض فمن صيغ العموم وقد غلط من قال إن المراد بمن حولها قرى الجزيرة العربية فمن أين له هذا التخصيص بدون مخصص ، والمراد بإنذار أم القرى إنذار أهلها وأهل من حولها من سائر الأرض فهو على تقدير مضاف كقوله تعالى واسأل القرية أى أهل القرية فالمراد بمن حولها سائر أهل الأرض بدليل اتجاههم إليها فى صلاتهم فى مشارق الأرض ومغاربها . ومثلها آية الشورى (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها) من جميع الخلق عجم وعرب وتنذر يوم جمعهم وحسابهم كل فريق على ما عمل (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وأما قوله تعالى (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة الآية)(١) هذا النص الكريم من أوله إلى آخره لا يؤخذ منه هذا المعنى المزعوم لهم وهو خصوص الرسالة بالعرب دون غيرهم فمعنى الآيات باختصار (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيء) أى أعطينا موسى التوراة تماماً للنعمة والكرامة على من أحسن فى اتباعه واهتدى به أو آتيناه الكتاب تاماً كاملا جامعاً لما يحتاج إليه من الشريعة وتفصيلا لكل شيء من الأحكام كالعبادات والمعاملات والعقوبات والحرب (وهدى ورحمة) أى علماً من أعلام الهداية وسببا من أسباب الرحمة (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون) أى آتيناه الكتاب جامعا لما ذكر وليعد قومه ويجعلهم محل الرجاء للإيمان بلقاء الله تعالى فى دار كرامته (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) أى وهذا القرآن الذى يتلى عليكم كتاب عظيم القدر رفيع الشأن .

فالتنكير فيه للتعظيم أى أنزلناه كما أنزلنا على موسى كتابا جامعا لكل أسباب الهداية التامة الزائدة على ما فى كتاب موسى والمبارك من البركة وهى الزيادة والنماء وقد سبق أن بينا من قبل مزايا القرآن الكريم على غيره من الكتب الإلهية (فاتبعوه واتقوا) أى فاتبعوا ما هداكم إليه واتقوا ما نهاكم عنه وحذركم إياه لتكون رحمته تعالى مرجوة لكم

(١) آية ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الأنعام .

فى الدنيا والآخرة فكون الكتاب هدى ورحمة صريح فى التعليل الآتى وهو (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) وهذا قطع لطريق التعليل والاعتذار منهم والمعنى أنزلناه لئلا تقولوا أو كراهة أن تقولوا أو منعا لكم من أن تقولوا يوم الحساب والجزاء معتذرين عن شرككم وإجرامكم (إنما أنزل الكتاب) الهادى إلى توحيد الله ومعرفته وتزكية النفس من دنس الشرك والرذائل (على طائفتين من قبلنا) وهم اليهود والنصارى وأن حقيقة حالنا وشأننا أننا كنا غافلين عن دراستهم وتعليمهم لجهلنا بلغتهم وغلبة الأمية علينا (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) لأننا أزكى أفئدة وأعلى همة وأمضى عزيمة وقد قالوا هذا فى الدنيا كما حكاه الله تعـالى عنهم فى آخر سورة فاطر (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً استكباراً فى الأرض ومكراً لسيء ولا يحق المكر السيء إلا بأهله) .

وأما قوله تعالى (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فهذا جواب قاطع لكل تعلة وعذر فإن القرآن بينة عظيمة كاملة فهو مبين للحق فى العقائد والحجج والدلائل والفضائل والآداب فى أصول الشريعة وأمهات الأحكام بما يصلح به أمور البشر وشئون الاجتماع وهو هدى كامل لمن تدبره وتلاه حق تلاوته ورحمة عامة للبشر الذين تنتشر فيهم هدايته فهذه معانى تلك الآيات وما تدل عليه فأى إشارة فى هذا الكلام لخصوصية رسالة محمد عليه الصلاة والسلام بالعرب .

وأما قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى من العرب فقد أخرج ابن مردويه عن أنس قال (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم) فقال على بن أبى طالب يا رسول الله ما معنى من أنفسكم ؟ (قال نسبا وصهرا وحسبا) ليس فى ولا فى آبائى من لدن آدم سفاح كلنا نكاح .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) بفتح الفاء يعنى من أعظمكم قدراً وأعلاكم شأنا ، وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبى وقاص قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جاءته جهينة فقالوا له إنك نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا قال ولم سألتم هذا قالوا نطلب الأمن فأنزل الله هذه الآية ، فأى خصوصية تفهم من هذه الآية إلا أنهم يغالطون ويكابرون .

وأما قوله تعالى (ولكل أمة رسول) فمعناه أنه تعالى جعل لكل أمة من الأمم الخالية رسولا بعثه فيهم فى وقت الحاجة إليه يبين لهم أصول دينه الثلاث الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر والعمل الصالح المناسب لحال زمانهم فإذا جاء رسولهم وقامت الحجة عليهم قضى بينهم بالقسط أى قضى بينه وبينهم بالعدل وهم لا يظلمون فى قضائه تعالى وهذا تقرير لسنة الله فى خلقه حيث لا يتركهم من غير دين يهديهم إلى الخير ، فأى خصوصية تفهم من هذه الآية كذلك إلى العمى والضلال عن هدى القرآن .

وأما قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) فمعناه كما يقول علماء التفسير لما من الله على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل يكون بلسان قومه . أى متلبسا بلسانهم متكلما بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه

المرسل إليهم وسهل عليهم قوله بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لايدرون مايقول ولا يفهمون مايخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهراً طويلا ومع ذلك فلابد أن يصعب عليهم فهمه بعض الصعوبة. ولهذا علل سبحانه وتعالى النزول بلسان القوم. بقوله ليبين لهم أى وهذا لا يدل بدوره على خصوص هذه الرسالة بالعرب وحدهم لأنه صلى الله عليه وسلم أرسل للناس جميعاً بل للإنس والجن، ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة. كامر ولكنه لما كان قومه هم العرب وكانوا أخص به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم وعليهم تبيينه لمن كان على غير لسانهم وتوضيحه حتى يصير فاهما له كفهمهم إياه ولو نزل بجميع لغات من أنزل إليهم لاختلفوا فى معانيه إختلافا كثيراً لتعدد اصطلاحات تلك اللغات المختلفة فى معانى كلمات القرآن مما يؤدى لإختلافهم فى القرآن كما إختلف اليهود والنصارى فى كتبهم والإختلاف فى القرآن كفر فكان القرآن بلغة العرب لهذا وعلى العرب أن يترجموا لغيرهم معانى القرآن بلغاتهم ليفهموه ويعملوا بما فيه.

أما ترجمة لفظه فلا يجوز بحال من الأحوال لأنه عربى ومن شرط صحته العربية قال تعالى (إنا أنزلناه قرآناً عربيا لعلكم تعقلون)[1] وقال عز من قائل: (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى)[2] وقال جلت حكمته (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ولو نزلناه على بعض الأعجميين فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين)[3] فأنزله بلغة العرب لأنهم هم الذين يعلمون معانيه ويفهمون مافيه ويبلغون دعوته لجميع الأمم

---

(١) آية (٢) من سورة يوسف (٢) آية ٤٤ من سورة فصلت.

(٣) آية (١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥) من سورة الشعراء.

ثم إن فى ذلك مجالا كبيرا لإعمال الفكر والترجمة لمعانيه بتلك اللغات المختلفة وهو سبيل إلى الإجتهاد والكد وترقية للنوع الإنسانى فارتقاء العقول على حسب الإطلاع والبحث واستقامة الأعمال أما قوله تعالى : فاستمسك بالذى أوحى اليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك) (١) فمعناه استمسك يامحمد بالذى أوحى إليك من القرآن وإن كذب به من كذب (إنك على صراط مستقيم) أى على طريق واضح المعالم لاغموض فيه ولا ابهام (وإنه لذكر لك ولقومك) أى وان القرآن لشرف لك ولقومك من قريش إذ نزل عليك وأنت منهم بلغتك ولغتهم ومثله قوله تعالى (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) أى فيه شرفكم وماتصيرون إليه من ثواب وعقاب .

وقيل فى (وإنه لذكر لك ولقومك) أى فيه بيان لك ولأمتك جميعاً فيما بكم إليه حاجة فأى خصوصية تفهم من معانى هذه الآيات إلا أن القوم لا يفقهون . على أننى أريد أن أقول هنا حيث أن الأمة الإسلامية قد شرفها الله عز وجل بنزول القرآن بلغتها وجعل محمداً صلى الله عليه وسلم منهم وجعل رسالته عامة كافة لجميع الناس وجعل دينهم الإسلام وهو الدين الحق وما عداه ضلال . وقد وعد الله بنشره فى جميع الأرض فقال تعالى (وهو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا) وحيث أن أبناء العرب هم العارفون بهذه اللغة لهذا أقول هم الملزمون بنشر هذه اللغة العربية ودراسة هذا الدين الصحيح للأمم الأخرى . فإن قصرت الأمة العربية فيما ألزمها الله به أذلها الله فى الدنيا وأدخل المقصرين منها النار يوم القيامة ولذلك لما قصرت فى واجبها فترة من الزمن انطمست معالمها إلى حد ما فانغمسوا فى تقاليد الأمم الأوربية ودخلوا فى حوزتهم

---

(١) آية (٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) من سورة الزخرف .

فتدهور حالهم وضعفت شوكتهم ، وعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب من إخواننا ويفهموا مراكزهم فى الأرض فإنهم هم المعلمون للأمم . فلينشروا هذا القرآن . وليعلموا اهم لغات الأمم وليكتبوا إليهم المصاحف بالعربية ويكون بهامشها تفاسير بلغات مختلفة : بالإنجليزية والروميه والفارسية والألمانية ونحوها حتى تعرف الأمم هذا الدين الحق ويتبين لهم الرشد من الغى .

فهذه الآيات ونحوها مما ذكرت نزول القرآن باللغة العربية توجب على أبناء العرب من مصرى وشامى ويمنى وحجازى وعراقى ومغربى أن يكونوا هم ناشرى هذا الدين وسيقوم مجدهم كرة أخرى إن شاء الله وترجع أيام عزهم فقد ورد فى حديث البخارى ومسلم (أن الخلافة فى قريش) وفى البخارى (إن هذا الأمر فى قريش لايعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ماأقاموا الدين) إذا عرفت هذا فتأمل قول المصطفى صلى الله عليه وسلم (ما أقاموا الدين) على أنى أعود مرة ثانية فأقول لهؤلاء القوم مالكم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعضه الآخر فلماذا آمنتم بتلك الآيات التى أوردتموها دليلا على خصوص الرسالة المحمدية فى زعمكم وهذا لسوء الفهم وتبلد القريحة . وتركتم الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة الدالة على عموم الرسالة كقوله تعالى (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)(١) وقوله تعالى (قل أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً)(٢) وقوله تعالى (وماأرسلناك إلا كافة للناس وبشيراً ونذيراً)(٣) وقوله تعالى (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين)(٤) والعالمين جمع عالم والعالم ماسوى الله تعالى . وقوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون

---

(١) آية (١٩) من سورة الأنعام　　(٢) آية (١٥٨) من سورة الأعراف
(٣) آية (٢٨) من سورة سبأ　　(٤) آية (١٠٧) من سورة الأنبياء

للعالمين نذيرا)[1] وقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن بن عباس رضى الله عنهما قال (بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الأحمر والأسود فقال يا أيها الناس إنى رسول إليكم جميعاً) وقيل معنى كونه صلى الله عليه وسلم رحمة للكفار فى الدنيا فلأنهم أمنوا به من الخسف والمسخ والإستئصال ويؤيد ذلك قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) ثم أن الآيات الواردة فى القرآن الكريم الدالة على عموم رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كثيرة وقد ذكرنا منها خمس آيات صريحات فى الدلالة على عموم الرسالة . والله أعلم .

(١) آية ١ من سورة الفرقان

الرد على الشبهة الثانية فى هذا الباب

وهى قولهم أن إعجاز القرآن إنما هو نظمه فحسب

ونقول رداً على هذه الشبهة الواردة فى إعجاز القرآن : إن من زعم أن إعجاز القرآن إنما هو فى نظمه فحسب فهو زعم باطل من أصله ودليل بطلانه ما أثبته العلماء المحققون من قدامى ومحدثين وما كتبوه فى هذا المضمار مؤيداً بالدليل والحجة وما أثبته التاريخ وشهدت به الأيام وماهو مشاهد بالعيان . لدليل قاطع على أن القرآن الكريم معجز من جميع ما يخطر ببال العاقل المتدبر من جميع نواحى الإعجاز . غاية ما فى الأمر أن كل العلماء اتفقوا على إعجازه فى نظمه ولفظه وبيانه وإخباره بالمغيبات وإن اختلفوا فى مسألة الإعجاز العلمى مستدلين على ذلك بأن التحدى إنما كان على الإتيان بمثل هذا القرآن أو بمثل سورة منه أو بعشر سور من مثله ولو مفتريات فالتحدى كان بمثل اللفظ وفصاحته والأسلوب والنظم وبلاغته لا بشيء مما ظهر من المخترعات الحديثة فى هذه العصور لأن القوم الذين نزل فيهم القرآن كانوا لا يخطر ببالهم مثل هذه المخترعات ولا يعرفون عنها شيئاً على أن من قالوا : إن فى القرآن الكريم إعجازاً علمياً لا ينكرون إعجازه فى لفظه وأسلوبه ويستدلون على صحة رأيهم وهو وجود الإعجاز العلمى فى القرآن بقوله تعالى (سنريهم آيتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى تبين لهم أنه الحق أو لم يكفى بربك أنه على كل شيء شهيد)[1] وعلى كل حال فإن مسألة إعجاز القرآن هى كما قال صاحب المنار مع شيء من التحوير فى العبارة والاختصار والإيجاز فى الأدلة :

---

(١) آية (٥٣) سورة فصلت .

أنه أمر ثبت بالعقل وتواتر فيه النقل . وحسبك منه وجود ما لا يحصى من المصاحف فى جميع الأقطار التى يسكنها المسلمون وكذا فى غيرها ووجود الألوف من حفاظه فى مشارق الأرض ومغاربها وهى تحكى لنا هذه الآيات فى التحدى بإعجازه ، ولو وجد له معارض أتى بسورة مثله لتوفرت الدواعى على نقلها بالتواتر أيضاً ، بل لكانت فتنة ارتد بها المسلمون على أدبارهم هذا ولما كان إعجازه لمزايا فيه تعلو قدرة المخلوق علما وحكما وبيانا للعلم والحكمة حار العلماء فى تحديد وجه الإعجاز فيه بعد ثبوته بالعلم اليقينى الذى بلغ حد الضرورة فى ظهوره . حتى قال بعض علماء المعتزلة : إن إعجازه كان بالصرفة . يعنون أن الله تعالى صرف قدرة بلغاء العرب الخلص فى عصر التنزيل عن التوجه لمعارضته فلم يهتدوا إليها سبيلا وقد أبطل العلماء القول بالصرفة وعللوا هذا الإبطال بأن القول بالصرفة لو كان صحيحاً لم يكن فى القرآن إعجاز قط وسبق أن تكلمنا على إبطال هذا الرأى فى مقدمة هذه الرسالة فى القسم الثانى منها فارجع إليه إن شئت وعلى كل فالقول بالصرفة رأى كسول أراد أن يريح نفسه من عناء البحث وإجالة النظر وقدح الفكر فى هذا الأمر ولكن لشدة حاجة المسلمين لبيان هذا الأمر ووضوحه سنورد طرفا من أقوال العلماء فيه وشموله لكل وجه من وجوه الإعجاز رداً على من قال إن اعجازه كان فى نظمه فحسب

أما قولهم وقد ذهب المسلمون يلتمسون له الشمول وحاولوا أن يجدوا فيه إعجازا إلهيا فى العقيدة والشريعة والفلسفة وفى العلم الحديث

(فنقول رداً على هذا إن من أبرز المتكلمين فى ناحية إعجاز القرآن من القدامى والمحدثين إبراهيم بن سيار النظام المعتزلى توفى سنة ٢٣١ ﻫ وخلاصة رأيه فى إعجاز القرآن أنه أخبر بالمغيبات .

والجاحظ وهو ليس بحاجة إلى تعريف وصفه ابن المرتضى فى الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة ورأيه أن إعجاز القرآن كان فى نظمه وأسلوبه وروعته وجلاله وإن كان رأيه فى الصرفة أنها وجه من وجوه الإعجاز ولكن بعد أن قامت تجربه المعارضة وفشلت وأعترف العرب بالعجز وشهدوا بأن القرآن معجز لنظمه العجيب ، وهاشم الجبائى توفى ٣٢١ هـ وصفه ابن المرتضى فى الطبقة التاسعة من طبقات المعتزلة ورأيه فى إعجاز القرآن يرجع الى منزلته العالية فى الفصاحة قائلا (إنما يكون الكلام فصيحا بجزالة لفظه وحسن معانيه ولا بد من اعتبار الأمرين لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحا فلا بد من اعتبار الأمرين معا .

وأما أبو الحسن الرمانى المعتزلى المولود سنة ٢٩٦ هـ المتوفى ٣٨٤ هـ فقد حدد وجوه الإعجاز فى القرآن فى سبع جهات .

١ — ترك المعارضة مع شدة توفر الدواعى. التحدى للكافة. والصرفة والبلاغة والأخبار الصادقة عن الأمور المغيبة . ونقض العادة وقياسه بكل معجز .

وأما القاضى عبد الجبار المتوفى ٤١٥ هـ وهو الذى تلقبه المعتزلة بقاضى القضاة فرأيه فى الإعجاز أنه تحدى بمعارضته مع أنهم كانوا هم الغاية فى الفصاحة والمشار إليهم فى الطلاقة والذلاقة وقد قرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله فلم يعارضوه وعدلوا عنه .

وذلك يدل على أنه فى الفصاحة قد بلغ نهاية الرتبة وأنه صار بذلك معجزا وأنه بالإضافة لإعجازه البلاغى فهو معجز أيضا بزوال الاختلاف والتناقض على ما يقتضيه قوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) — وأنه معجز أيضا لتضمنه الإخبار عن الغيوب: وهؤلاء المتقدمون كلهم من المعتزلة .

أما علماء الأشاعرة فنذكر منهم أولا القاضى أبا بكر الباقلانى الملقب بسيف السنة ولسان الأمة توفى سنة ٤٠٣ ﻫ ورأيه فى الإعجاز ينحصر فى ثلاثة وجوه تكررت فى كتبه كثيرا وهى الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة وأن القران بديع فى نظمه عجيب التأليف وأنه بلغ المنتهى فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه .

وأما عبد القاهر الجرجانى الأشعرى صاحب دلائل الإعجاز توفى سنة ٤٧١ ﻫ ورأيه أن الإعجاز فى القرآن هو نظمه وليس النظم هو فى ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق ولكنه تناسق دلالات الألفاظ وتلاقى معانيها على الوجه الذى يقتضيه العقل .

أما عن الزمخشرى فهو جار الله محمود بن عمر ولد بزمخشر من أقاليم خوارزم الفارسى سنة ٤٦٧ ﻫ حيث كان مذهب الإعتزال مزدهرا فكان طبيعيا أن يعتنقه ، ورأيه فى الإعجاز أن القرآن معجز لصدقه فى الإخبار عن الغيوب . وعنده أن نظم القرآن العجيب هو أم الإعجاز وهو القانون الذى وقع عليه التحدى .

وأما ابن حزم الأندلسى الظاهرى فقد ولد سنة ٣٨٤ ﻫ وتوفى ٤٥٦ ورأيه فى الإعجاز من ثلاثة وجوه الإخبار بالغيب ولنظمه الذى لا يقدر عليه العباد ولأن الله صرف الناس عن الإتيان بمثله .

وأما فخر الدين الرازى المولود سنة ٥٤٤ ﻫ والمتوفى ٦٠٦ ﻫ فرأيه فى الإعجاز أن القرآن معجز لبلاغته التى أعجزت البلغاء فلا تجديد عنده يذكر .

وأما السكاكى فهو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن على السكاكى ولد فى خوارزم سنة ٥٥٥ ﻫ وقيل توفى سنة ٦٢٣ ﻫ أو سنة ٦٢٧ ﻫ والراجح

أنه توفى ٦٢٦ هـ ورأيه فى الإعجاز أن للبلاغة حدا أعلى وهو حد إعجاز القرآن ويقول اعلم أن شأن إعجاز القرآن عجيب لا يدرك ولا يمكن وصفه ومدرك الإعجاز عندى هو الذوق .

هذه هى آراء العلماء فى منتهى الاختصار ، والإيجاز فى وجوه الإعجاز فى القرآن فمن أين لهؤلاء المعارضين القول بأن علماء المسلمين قالوا إن إعجاز القرآن هو فى نظمه فحسب إن هذا إلا إفك مفترى على أننا سنتكلم على قولهم إن التاريخ الإسلامى ينكر الإعجاز العلمى ونحوه فى القرآن ونرد على هذا الإنكار فنقول قال صاحب المنار فى إعجاز القرآن : إن إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه له وجوه) الأول اشتماله على النظم الغريب والوزن العجيب والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب فى مطالبه . وفواصله ومقاطعه كما يدل على ذلك كلام الوليد بن المغيرة وهو من أكبر بلغاء قريش فقد أخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى دلائل النبوة عن ابن عباس قال : إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه . فإنك أتيت محمدا لتعرض لما عنده .

قال لقد علمت أنى من أكثرها مالا . قال فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له قال وماذا أقول (فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله مايشبه هذا الذى يقول شيئا من هذا . والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة . وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى . وإنه ليحطم ماتحته قال والله مايرضى قومك حتى تقول فيه قال فدعنى أفكر فلما فكر قال (إن هذا سحر يؤثر) الخ . وكان هذا سبب نزول قوله تعالى (ذرنى ومن خلقت وحيدا)

وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد) الآيات[1] وقد استطرد المرحوم رشيد رضا قائلا لعمرى إن مسألة النظم والأسلوب لاحدى الكبر وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر ولم يوفها أحد حقها على كثرة ما أبدوا وأعادوا فيها .

وما هو بنظم واحد ولا بأسلوب واحد . وإنما هو مائة أو أكثر . فالقرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوته فى الطول والقصر وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين . المعين على الفهم المفيد للتأثير . على اختلافها فى الفواصل وتفاوت آياتها فى الطول والقصر فمنها المؤلف من كلمة واحدة ومن كلمتين ومن ثلاث ومن أكثر .

ومنها المؤلف من سطر أو سطرين أو بضعة أسطر ومنها المتفق فى أكثر الفواصل أو كلها ومنها المختلف فى السورة الواحدة منها .

وهى على مافيها من تشابه وغير متشابه فى النظم متشابهة كلها فى مزج المعانى العالية بعضها ببعض من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى وآياته فى الأنفس والآفاق . والحكم والمواعظ والأمثال وبيان البعث والمآل ودار الفجار والأبرار والاعتبار بقصص الرسل والأقوام وأحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام فنظم القرآن لا يشبهه ولا يقرب منه شىء من نظم الفصحاء ولا أساليب البلغاء مهما ارتقى ومهما تختلف منظومات الشعراء وترتقى فلن تعدو بحور الشعر المنقولة عن المتقدمين والتوشيحات المعروفه عند المولدين فلا يشبه شىء من هذه ولاتلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها . ولكل منهم نظم وأسلوب خاص

---

(١) من آيه ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ إلى آية ٣٠ من سورة المدثر .

وإن شئت أن تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشرى ونظم الكلام الإلهى فأت بقارىء حسن الصوت يسمعك بعض أشعار المفلقين أو خطب المصاقع المفوهين من المتقدمين والمتأخرين يسمعك بكل مايستطيع من نغم وتحسين ، ثم ليتل عليك بعض سور القرآن المختلفة النظم والأسلوب كسورة النجم مثلا ثم سورة القمر والرحمن والواقعة وسورة الحديد ثم حكم ذوقك ووجدانك فى الفرق بينها فى أنفسها ثم فى الفرق بين كل منها وبين كلام البشر فى كل أسلوب من أساليب بلغائهم وتأثير كل من الكلامين فى نفسك بعد اختلاف وقعه فى سمعك ، بل تأمل المعنى الواحد من المعانى المكررة فى القرآن لأجل تقريرها فى الأنفس ونقشها فى الأذهان كالاعتبار بأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم من مختصر ومطول وافطن لإختلاف النظم والأساليب فيها فمن المختصر مافى سورة الذاريات والنجم والقمر والفجر ، ومن المطول ما فى سورة الأعراف والشعراء وطه .

لعلك إن قرأت هذا تشعر بالفرق الشاسع بين كلام المخلوقين وكلام الخالق وتحكم بهذا الضرب من الإعجاز حكماً ضرورياً ووجدانياً لاتستطيع أن تدفعه عن نفسك وإن عجزت عن بيانه بقولك .

الوجه الثانى :

الإعجاز فى بلاغته التى تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفى عصر تنزيله وفيما بعده ولم يختلف أحد من أهل البيان فى هذا وإنما أورد بعض المخالفين بعض الشبه على كون بلاغة كل سورة بلغت حد الإعجاز فيه . فاختلفوا فى أن قصارى السور لم تبلغ حد الإعجاز .

والقائلون به لا يحصرون إعجاز كل سورة فيه ويتحقق التحدى

عندهم بإعجاز بعض السور القصيرة بغيره كأخبار الغيب فى سورة الكوثر التى هى أقصر سورة ، على أن مسيلمة الكذاب تصدى لمعارضتها بمحاكاة فواصلها، فجاء بخزى كان حجة على عجزه وصحة إعجازها ، ومن الناس من لا يفقه سر هذه البلاغة . ويمارى فيما كتب علماء المعانى والبيان من قواعدها زاعمين أنه يمكن حمل كل كلام عليها .

وأن الأحالة على الذوق فيها إحالة على مجهول . لا تقوم به حجة، يثبت به مدلول لأن الذوق كالحس خاص بصاحبه (من ذاق عرف) وسبب هذا جهلهم باللغة العربية الفصحى ، فقد مرت القرون فى أثر القرون على ترك الناس لمدارسة الكلام البليغ منها وإستظهاره وإستعماله ، وإقتصار مدارس الأمصار على قراءة كتب النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ، وهى أدنى ما وضع فى فنونها فصاحة وبياناً ، وأشدها عجمة وتعقيداً .

فتلك الكتب التى إقتصر مؤلفوها على سرد القواعد بعبارة فنية دقيقة بعيدة عن فصاحة أهل اللغة وبيان المتقدمين الواضعين لهذه الفنون ومن بعدهم إلى القرن الخامس ، كالخليل وسيبويه وأبى على وبن جنى وعبد القاهر الجرجانى . حتى صار أوسع الناس علماً بهذه الفنون أجهل قراء هذه اللغة بها وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ منها فضلا عن الإتيان بمثله .

فمن لم يقرأ من كتب البلاغة إلا مثل السمرقندية وشرحى جوهر الفنون وعقود الجمان فشرحى التلخيص للسعد التفتازانى وحواشيهما لا يرجى منه أن يتذوق للبلاغة طعماً أو يقيم للبيان وزناً .

فأنى يهتدى إلى الإعجاز بها سبيلا، أو ينصب عليه دليلا، وإنما يرجى هذا التذوق لهذا العلم لمن يقرأ « أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز » للإمام

عبد القاهر فإنهما هما الكتابان اللذان يحيلانك فى قوانين البلاغة على وجدانك وماتجده من أثر الكلام فى قلبك وجنانك ولابد مع ذلك من قراءة الكثير من منظوم الكلام ومنثوره وإستظهار بعضه مع فهمه كما قرر ذلك ابن خلدون فى الكلام على علم البيان فى مقدمته .

فهذا هو الأصل فى تحصيل ملكة البلاغة فهما وآداء والقوانين الموضوعة لها مستنبطة من الكلام البليغ وليس هو مستنبطاً منها وقد عكست القضية منذ القرون الوسطى حتى ساغ لمستقل الفكر أن يقول فى الكتب التى أشرنا لها وهى التى تقرأ فى معاهد الأزهر وكلياته وأمثالها من معاهد التعليم فى بلاد الإسلام .

إن قواعدها تقليدية لايمكن أن يعلم بها تفاضل الكلام . إذ يمكن حمل كل كلام عليها ، ولذلك كان أكثر الناس مزاولة لها أضعفهم بياناً وأشهرهم عيا وفهاهة ، وأيما كان فإن معرفة مكانة القرآن الكريم من البلاغة لايحكمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتى حظا عظيما من مختار كلام البلغاء المنظوم منه والمنثور والمرسل والمسجوع ، حتى صار ملكة له وذوقا ، واستعان على فهم فلسفته بمثل كتاب عبد القاهر والصناعتين لأبى هلال العسكرى والخصائص لابن وجنى ، وأساس البلاغة للزمخشرى ومغنى اللبيب لابن هشام فهذه مقدمات البلاغة ونتيجتها الملكة ، ولها غاية يمكن العلم بها من التاريخ وهى ما كان للقرآن الكريم من التأثير فى الأمة العربية ثم فيمن حذفها من الأعاجم أيضا .

على أن الحد الصحيح للبلاغة فى الكلام هو أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موضع الإقناع من العقل والوجدان من النفس وقد يعبر عنهما بالقلب ولم يعرف فى تاريخ الأمة البشرية أن كلاما قارب القرآن فى تأثيره فى العقول والقلوب .

فهو الذى قلب طباع الأمة العربية وحولها عن عقائدها وتقاليدها وصرفها عن عداواتها ، وصدف بها عن أثرتها وثاراتها، وبدلها بأميتها حكمة وعلماً وبجاهليتها أدباً رائعاً وحلما ، وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها وعدلها وحضارتها وعلومها وفنونها ، وقد إهتدى إلى هذا النوع من إعجازه بعض حكماء أوربا مستنبطاً له من هذه الغاية التاريخية وبينه فى الرد على من زعم من دعاة النصرانية أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يؤت مثل ماأوتى موسى وعيسى من الآيات المعجزة ، فقال مامعناه : أن محمداً كان يتلو القرآن مولهاً مدلهاً ، خاشعاً متصدعا ، ومعنى مولها مدلها : أى فى حال يؤثر فيها الكلام فى نفسه وفى نفس سامعه تأثيراً يملك عليهما أمرهما ، أى أن يكون فى قراءته فاعلا منفعلا وهاديا مهتديا ، فيفعل فى جذب القلوب إلى الإيمان به فوق ما كانت تفعل جميع آيات الأنبياء من قبله وقد روى ورى عن بعض أدباء هذه اللغة من غير المسلمين أنهم كانوا يذهبون فى بعض ليالى رمضان إلى بعض بيوت معارفهم من المسلمين ليسمعوا القرآن يمتعون ذوقهم العربى وشعورهم الأدبى بسماع آياته المعجزة . وقد شهد له أهل العلم والإنصاف منهم بهذا الاعجاز فى النظم والأسلوب والبلاغة التى يغوص تأثيرها فى أعماق القلوب ، ولكنهم لم يفقهوا دلالة ذلك على أنه من عند الله عز وجل لسبق الشقاوة لهم أزلا .

الوجه الثالث :

من وجوه إعجازه إشتماله على الإخبار بالغيب من ماض كقصص الرسل مع أقوامهم مثل قوله فى بنى آدم : (وأتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما

يتقبل الله من المتقين)[١] الآيات وكقصة نوح عليه السلام مع إبنه ومع قومه فى سورة هود وقصة موسى وفرعون وقصة يعقوب وأولاده يوسف وإخوته ومادار بينهم وقصة هود وصالح وداود وسليمان وأيوب ويونس وأصحاب الكهف وغير ذلك مما قصه علينا من أخبار الأمم السابقة ، ومن قصص الحاضر أيام تنزيله كقوله تعالى : (آلــم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) الآيات[٢] وفيها خبران عن الغيب ظهر صدقهما بعد بضع سنين من نزول الآيات وكان الصديق رضى الله عنه قد راهن بعض المشركين على صدق الخبر فربح الرهان ، وعن المستقبل كقوله تعالى (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها . ذرونا نتبعكم) الآية[٣] وقوله (قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون)[٤]

وهذه الآيات الثلاث فى سورة الفتح ، وقوله تعالى (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها)[٥] وقوله تعالى (والله يعصمك من الناس) وقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا)[٦]

---

(١) آية ٢٧ من سورة المائدة .

(٢) الآيات الخمس من أول سورة الروم . (٣) آية ١٥ من سورة الفتح

(٤) آية ٢٧ من سورة الفتح . (٥) آية ١٤٢ من سورة البقرة .

(٦) آية ٥٥ من سورة النور .

وفى سورة التوبة من الأخبار عما فى قلوب المنافقين وعما سيقولون فى بعض المسائل وأمثالها كثير . هذا ومن أظهر الإخبار بالمغيبات وعد الله تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل فى قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(١) وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أومن تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) الآية(٢) أنه قال :

(إنها نبأ غيبى عمن يأتى بعد) بل ورد هذا المعنى فى حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم أيضا .

وقد ظهر مصداق هذه الآية فى حروب الأمم الكبرى وغيرها وفى هذه الأيام ، فرحا الحرب دائمة تكاد لا تنقطع حتى بين المسلمين كما نرى .

فهذه الأخبار الكثيرة بالغيب لدليل واضح على إعجاز القرآن وعلى أنه كلام الله تعالى إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه وعلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

الوجه الرابع :

سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف : خلافا لجميع كلام البشر وهذه السلامة هى المراد بقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فإننا نجد كبار العلماء فى كل عصر ومصر يصنفون

---

(١) آية ٩ من سورة الحجر .　　(٢) آية ٦٥ سورة الأنعام .

الكتب الكثيرة فيسودون ثم يصححون ويبيضون ثم يطبعون وينشرون، ثم بعد كل هذا التدقيق والتحميص يظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والتناقض والأغلاط اللفظية والفنية ولا سيما إذا طال الزمان . وهذا أمر مشهور فى جميع الأمم لاسبيل لإنكاره لكن معاذ الله أن يقع شيء من ذلك فى القرآن الكريم .

الوجه الخامس :

إعجازه فى اشتماله على العلوم الإلهية وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى الموافقة لكل زمان ومكان وبذلك كان فضله على كل ماسبقه من الكتب السماوية ومن القوانين الوضعية ومن الآداب الفلسفية كما يشهد بذلك التاريخ وأهل العلم المنصفون من جميع الأمم الشرقية والغربية .

من آمن منهم بكونه من عند الله ومن لم يؤمن حتى كبار السياسيين من خصوم الدول الإسلامية أمثال (لورد كرومر) عميد الدولة البريطانية وهو فى مصر شهد فى تقريره السنوى الأخير عن مصر بنجاح الإسلام الباهر فى التشريع الدينى دون التشريع الإجتماعى والسياسى وعلل الأخير بأن ما وضع منذ أكثر من ألف سنة لايمكن أن يوافق مصالح جميع الناس الآن وفى كل آن فكتب إليه الشيخ محمد رشيد رضا كتابا يسأله فيه هل تعنى بأحكام الشريعة الكتاب والسنة أم الفقه الذى وضعه العلماء ومزجوا فيه آرائهم بما يأخذونه عنهما وخالف فيه بعضهم بعضا :

فإنه إن كان يعنى الكتاب والسنة فأنا مستعد لإظهار خطئه له : فكتب إليه اللورد كتابا قال فيه (إنى أردت بما كتبت مجموع القوانين الإسلامية التى تسمونها بالفقه لأنها هى التى تجرى عليها الأحكام ولم أقصد الدين الإسلامى نفسه الخ على أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز فإن علوم

العقائد الإلهية والغيبية والآداب والتشريع الديني والمدني والسياسي هي أعلى العلوم وأرقاها وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال الا الأفراد القليلون: فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقا وكمالا، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئا منها ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحيا من الله تعالى إليه.

الوجه السادس:

اشتمال القرآن على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والإنسان ووصفه لخلق السموات وشمسها وقمرها ونجومها والأرض والهواء والسحاب والماء من بحار وأنهار وعيون وينابيع وفيه تفصيل الكثير من أخبار الأمم وبيان طريق التشريع السوي للأمم:

وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا. ثم عجزت هذه القرون التي ارتقت فيها جميع العلوم والفنون أن تنقض بناء آية من آياته أو تبطل حكما من أحكامه لعدم صلاحيته مثلا أو تكذب خبرا من أخباره، وهي التي جعلت فلسفة اليونان دكا. ونسخت شرائع الأمم نسخا وتركت سائر علوم الأوائل قاعا صفصفا. ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية ورجعت في تحقيقها إلى ماعثر عليه المنقبون من الآثار العادية. وحكمت فيها أصول العمران ومايسمونه بسنن الاجتماع. بحيث لم يبق لعلماء الأوائل كتابا غير مدعثر الأعضاء ساقط العماد، فهذا نوع من أنواع الإعجاز، غير ما تقدم من سلامته من التعارض والاختلاف

فتلك فى الماضى وهذه فى الحاضر والمستقبل ثم إن ما يأخذه الناس من المسائل العلمية والفلسفية بالتسليم فى زمانهم ثم يظهر ما يبطل تلك المسلمات وينقض ما بنيت عليه من النظريات . لا يعد عيبا فى قائله ولا ضعفا فى بيانه لأنه مما لا يسلم منه البشر . وأما من يتكلم فى بعض مسائل الموجودات لبيان العبرة فيها أو الحث على الاستفادة منها لا لبيان حقيقتها فى نفسها فهو لا يكلف أن يبين تلك الحقيقة التى لا تتعلق بغرضه من الكلام بالاصطلاحات العلمية والفنية . وقد ينتقد منه هذا إذا كان مما يصرف السامع عن مراده منه . أو يوجب نقصا فى استفادته منه كما هو شأن الذين يعظون دهماء الناس من جميع الطبقات ويضربون لهم الأمثال بآيات الله تعالى ونعمه فيما سخر لهم من المخلوقات .

فإذا كان هذا النوع من الكلام الذى لا يعاب فيه مخالفته للمسائل الفنية وقد يعاب فيه تكلف موافقتها . جاء مع ذلك إما موافقا وإما غير مخالف لمعارف أهل العصر الذى خوطب أهله به . ثم تبين أن بعض هذه المعارف كانت جهلا وظهر أنه موافق لما تجدد من العلم والحق والتشريع العدل أو غير مخالف له فلا شك فى أن هذه تعد له مزية خارقة المعتاد فى البشر . وقد ثبت هذا للقرآن الكريم وحده . فهو كتاب مشتمل على كثير من أمور العالم الكونية والاجتماعية مرت العصور وتقلبت أحوال البشر فى العلوم والأعمال ولم يظهر فيه خطأ قط فى شىء منها ، لهذا صح أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضربا من ضروب إعجازه للبشر . وإن لم يكن هذا مما تحدى به الرسول صلى الله عليه وسلم من عجز البشر عن مثله لأنه لم يكن ليظهر من بعد فادخر ليكون حجة على أهله كما أشرنا إلى ذلك فى أول الكلام على آراء العلماء فى وجوه الإعجاز .

الوجه السابع :

اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله .ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق وهذه المرتبة هي التي يسمونها بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم فهو وإن اختلف العلماء في تحقيق وقوع هذا النوع إلا أننا لابد أن نشير إليه هنا تحقيقاً لقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)[1] وقوله تعالى :وفي أنفسكم أفلا تبصرون[2] على أننا لانقول بإخضاع القرآن لكل نظرية علمية ونلتمس لها مكانا في آية من القرآن تتناولها بما يوافق هذه النظرية لا ، ليس الأمر كذلك فإن هذه العلوم تتجدد نظرياتها بتجدد الزمن وهي تصيب أحيانا وتخطىء أخرى فالذين يخضعون القرآن في تأويلهم ليطابق المسائل العلمية الحديثة مخطئون في ذلك ويسيئون الفهم في القرآن لأن هذه المسائل العلمية تخضع لسنة التقدم فتتبدل وتتغير وقد تبطل من أصلها فإذا أخضعنا القرآن لها فقد عرضناه للتناقض كلما تبدلت تلك القواعد العلمية أو أكتشف منها جديد ينقض القديم ويبطله . وإنما الإعجاز العلمي حقيقة علمية والقرآن حقيقة قرآنية فإن وافقت الحقيقة العلمية الحقيقة القرآنية فهو الإعجاز العلمي وإن لم تتفق مع القرآن فإنها لم تصل بعد لأن تكون حقيقة علمية وإنما هي لاتزال في طور التجربة لأنه من المسلم به أن الحقيقة العلمية إما أن توافق الحقيقة القرآنية أولا تعارضها وليس المراد بالإعجاز العلمي عند هؤلاء القائلين به هو الكشف عن تلك النظريات العلمية التي تتجدد وتتغير وتكون نتيجة لجهود بشرى وإنما المراد منه هنا هو الحث،

---

(١) آية ٥٣ من سورة فصلت .

(٢) آية ٢١ من سورة الذاريات .

ولفت الأنظار للتفكر والتدبر فى صنع الله العلى القدير لهذه المخلوقات العجيبة التى يستدل بها على أنها لابد لها من صانع حكيم وهو الله جلت قدرته وتعالت حكمته ، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح)[١] فكانوا يقولون فيه إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة فى السحاب بما يكون سببا لنزول المطر بتلقيح ذكور الحيوان لإناثه . ولما اهتدى علماء أوربا إلى هذا وزعموا أنه مما لم يسبقوا إليه من العلم صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب إليه . قال مستر (أجنيرى) المستشرق الذى كان أستاذاً للغة العربية فى مدرسة أكسفورد فى القرن الماضى . إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوربا بثلاثة عشر قرنا : انتهى منار .

نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح إذ كانوا ينقلون اللقاح من طلع ذكور النخيل إلى إناثها ولم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك وحدها ، ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز ، وكذلك قوله تعالى : (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى . أفلا يؤمنون)[٢] أى كذب الذين كفروا بآياتنا ولم يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة ففتقناهما وخلقنا منها هذه الأجرام السماوية التى تظلهم وهذه الأرض التى تقلهم ، فهذه المادة هى المبينة فى قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين)وهذا شىء لم يكن يعرفه العرب ولا غيرهم من أهل الأرض قبل القرآن . وكذلك خلق كل الأشياء من الماء ، وهو أصرح فى الآية مما قبله ، ومن الأمثلة

---

(١) من آية ٢٢ من سورة الحجر .

(٢) آية (٣٠) سورة الأنبياء .

كذلك قوله تعالى (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين)[١] فهذه السنة الإلهية فى النبات أصل سنة التلقيح المذكورة آنفا فإن المراد بها أن الريح تنقل مادة اللقاح من الذكر إلى الأنثى كما تقدم وفى هذا المعنى عدة آيات أهمها وأغربها وأعجبها قوله تعالى : (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)[٢] .

ومنه قوله تعالى (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) إن هذه الآية لهى أكبر مثال للعجب بهذا التعبير أى بقوله (موزون) فإن علماء الكون الإخصائيين فى علوم الكيمياء والنبات قد أثبتوا أن العناصر التى يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة فى كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدرة بأعشار الغرام والمليغرام وكذلك نسبة بعضها إلى بعض فى كل نبات أعنى أن هذا التعبير بلفظ كل المضاف إلى لفظ شىء الذى هو من أعم الألفاظ العربية والموصوف بالموزون . تحقيق لمسائل علمية فنية لم يكن شىء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر انظر رشيد رضا فى الجزء الأول من تفسير المنار عند قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا : الآية ٢٣ من سورة البقرة .

ومنه قوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل)[٣] تقول العرب كار العمامة على رأسه إذا أدارها ولفها وكورها بالتشديد صيغة مبالغة وتكثير فالتكوير فى اللغة إدارة الشىء على الجسم المستدير

---

(١) من آية (٣) سورة الرعد (٢) آية (٣٦) من سورة يس .
(٣) من آية ٥ فى سورة الزمر

كالرأس فتكوير الليل على النهار نص صريح فى كروية الأرض وفى بيان حقيقة الليل والنهار على الوجه المعروف فى الجغرافيا الطبيعية عند أهلها.

ومثله كذلك قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون)(١) فهو موافق لما ثبت فى الهيئة الفلكية ، مخالفا لما كان يقوله المتقدمون : ومنه الآيات المتعددة الواردة فى خراب العالم عند قيام الساعة وكون ذلك يحصل بواقعه أو قارعة تقرع الأرض قرعا وتصخها فترجها رجا وتبس جبالها بسا فتكون هباء منبثا . وحينئذ تتناثر الكواكب لبطلان ما بينها من سنة التجاذب : والآيات فى هذا وفى ما قبله تدل دلالة صريحة على بطلان ما كان يقوله علماء اليونان ومن قلدهم من علماء العرب فى الأفلاك والكواكب والنجوم . وعلى إثبات ما تقرر فى الهيئة الفلكية العصرية فى ذلك وفى نظام الجاذبية العامة .

فهذا النوع من المعارف التى جاءت فى سياق بيان آيات الله وحكمه وكانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر فى الغالب حتى أن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم فى كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة — فإظهار ترقى العلم لحقيقتها المبينة فيه ، مما يدل على أنها موحى بها من الله تعالى .

فهذه أمثلة من مسائل العلوم الكونية والفنون الطبيعية التى خطرت بالبال عند الكتابة من غير تفكير ولا مراجعة لكتب هذه العلوم وإنما

---

(١) آية ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ من سورة يس

جاءت تباعا عند سرد بعض الآيات والسور التى ذكر فيها ما يدل على وجود الإعجاز العلمى ولا بد من تعزيزها ببعض الأمثلة الخاصة بالتاريخ وليس هو من حيث هو تاريخ مطلب من العلوم التى تطلب من الكتاب الإلهى . فلم يذكر فيه شىء منه بقصد سرد حوادث التاريخ وإنما جاء ما جاء فيه من حيث ذكر الأمم السابقة وما دار بينهم وبين الرسل للعظة والاعتبار وبيان سنن الله تعالى فى الأمم والأقوام . وتثبيت قلب خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام . كما أن ذكر السموات والأرض وما بينهما لم يذكر شىء منه لبيان حقائق الموجودات فى أنفسها وإنما ذكرت فى سياق آيات الله تعالى الدالة على علمه وقدرته وحكمته ورحمته وفضله على عباده وقد تضمن كلا من هذا وذاك بدقة التعبير وإعجاز البيان آيات أخرى تظهر آنا بعد آن . دالة على أنواع من إعجاز القرآن . وعلى كونه وحيا من الرحمن فكتابه تعالى مظهر لقوله (كل يوم هو فى شأن) وأكتفى من هذا النوع الذى له علاقة بالتاريخ بمسألة عظيمة الشأن تشتمل على شواهد كثيرة منه . وهى حكم القرآن الحق على التوراة والإنجيل اللذين كان يدين الله تعالى بهما أعظم شعوب الأرض مكانة فى العالم وأوسعهم علما وحضارة ، ولا يزال الكثيرون منهم يقدسونها وكذا سائر الكتب التى يعبرون عن مجموعها بالعهدين القديم والجديد .

فما هذا الحكم الذى صدر من عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم على لسان عبده ورسوله النبى الأمى الذى لم يقرأ فى حياته سفرا ولم يكتب سطراً ولم يحط بشىء من أخبار التاريخ . وملخص هذا الحكم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد أوتوا نصيباً من الكتاب ونسوا نصيباً فلم يحفظوه كله وقد حرفوا ما أتوه عن مواضعه تحريفاً لفظياً

ومعنوياً وعقلياً وقد غلوا فى دينهم فزادوا فيه مالم يأذن به الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يحلون لهم ويحرمون عليهم مالم يشرعه الله وأنهم قصروا فى إقامته من جهة أخرى ففعلوا بما يوافق أهواءهم منه وتركوا ما يخالفها كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض .

وأن اليهود قالوا على مريم بهتاناً عظيما والنصارى غلوا غلواً عظيما فقالوا: إن الله هو المسيح بن مريم وقالوا الله ثالث ثلاثة (وما من إله إلا إله واحد) إلخ ما نطقت به الآيات التى يجد القارىء فى تفسيرها الحق المؤيد بالتاريخ الصحيح الذى حققه علماء أوربا وغيرهم بعد ظهور الإسلام هذا التاريخ المصدق للقرآن الحكيم فى حكمه الذى كان مجهولا بتفصيله عند جميع الناس .

فقد قام بعض كبار رجال الدين فى بلاد الانكليز يكتبون فى الجرائد ما قرروه فى جمعيات الكنائس من أن الإنجيل لا يثبت ألوهية المسيح فانظر المنار الجزء الأول لرشيد رضا عند سرده لوجوه الإعجاز فى تفسير قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا)[1] وقد ثبت عند مستقلى الفكر من أهل أوربا ممن آمن بما جاء به القرآن من حقيقة أمر المسيح وهو أنه بشر ممتاز بروح قدسية من الله ونبى لهولكن أكثرهم لا يعلمون أن هذا مما جاء به القرآن ، وأما عقيدة الكنيسة بربوبيته وألوهيته فهى محصورة فى عامة المقلدين لهم ولولا خشية ارتداد العوام لصرحوا بالتوحيد الإلهى ونفى التثليث كبعض قسس البروتستنت ، ولا يزال الموحدون يكثرون فى أوروبا والولايات المتحدة عاماً بعد عام ويقربون من الإيمان بالقرآن حيناً بعد حين . فمن أين جاءت كل هذه الحقائق السابقة واللاحقة فى القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله الأمى بعد أربعين سنة عاش معظمها فى عزلة عن

---

(١) آية ٢٣ من سورة البقرة

العالم وعلومه رعى فى أولها الغنم فى جبال مكة وشعابها وسار فى أثنائها سنين قليلة قلما كان يعاشر فيها أحدا . وهى التى ظل المسلمون يجهلون مراد القرآن منها بالتحقيق والتفصيل حتى بعد فتحهم للعالم الإسلامى واطلاعهم على علومه وتواريخه إلى أن وصل علم التاريخ وغيره إلى الدرجة المعروفة فمن أين لهؤلاء الملحدين القول بأن التاريخ يجهل مثل هذا التفكير ومثل هذه العلوم التى جاء إعجاز القرآن بها والله أعلم .

الباب الثالث

حول ثبوت، نص القرآن الكريم وكتابة مصاحفه

وما أثير حول هذا الباب من شبهات وتهم ومغـالطات

١ ـ الشبهات : قالوا إن نص القرآن الموجود حصل فيه اضطراب كبير وتحريف وتبديل وزيادة ونقصان وقد ضاع جزء كبير منه وذلك للأسباب التالية :

(ا) كان الإعتماد فى نقله وحفظه فى صدور الصحابه . وقد قتل عدد كبير منهم فى المغازى فذهب بذهابهم كثير من القرآن .

(ب) كان المكتوب قد كتب فى وسائل بدائية يصعب حفظها فكانت على العظام والجريد ونحوها مع صعوبة ترتيبه وانتظامه فيها . فضاع قسم كبير منه بضياع تلك العظام والعشب ولكن بقى فى الصدور من هذا القسم الضائع معناه . وهذا هو مازعم علماء المسلمين من أنه قسم من القرآن نسخ لفظه وبقى معناه .

(ج) إن الصحابة كانوا يحذفون من القرآن مايرون المصلحة فى حذفه فقد حذف على آية المتعة وأسقطها وكان يضرب من يقرؤها وهذا مما شنعت به عائشة عليه — فقالت إنه يجلد على القرآن وينهى عنه . وقد حذف عبد الله بن مسعود الفاتحة والمعوذتين . . . ونجد أبى بن كعب أضاف إلى المصحف صورتى : الخلع والحفد فعلمنا من ذلك أن الصحابة أسقطوها .

(د) وقد وجدنا نصوصا تدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم نفسه كان ينسى بعض القرآن بدليل الاستثناء فى قوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله) وقوله نفسة لبعض أصحابه أذكرنى آية كذا وكذا كنت أنسيتها. وفى رواية كنت أسقطهن من المصحف .

(هـ) إن الحاج بن يوسف الثقفى لما قام بنصرة بنى أمية جمع المصاحف فأسقط منها أشياء كثيرة مما لا يوافق بنى أمية ويسوؤهم وزاد فيه أشياء تزلفاً إليهم وألقى المصاحف السابقة وأعدمها ومحاها وغسلها بالخل هذا ماأوردوه من شبه وتهم .

ونقول رداً على الشبهة الأولى . إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد الذى وعد الله تعالى بحفظه ووعد الله لا يتخلف فقد حفظه الله من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ولم يذهب منه حرف واحد ولم يتغير فيه شىء من شكله ولا ضبطه بل كان محفوظاً بعناية الله تعالى من وقت أن تلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن رب العزة عز وجل وذلك فى العرضة الأخيرة التى عرضها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد عرضه عليه مرتين فى السنة التى توفى فيها فقد حظى القرآن بأوفى نصيب من عناية النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه فى السطور بعد أن حفظوه واستظهروه ونقشوه فى صفحات الصدور وكان ذلك بمقدار ماسمحت به لهم وسائل الكتابة وأدواتها فى عصرهم فهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتخذ كتابا للوحى فكان كلما نزل عليه شىء من القرآن أمرهم بكتابته . مبالغة فى تسجيله وتقييده وزيادة فى التوثق والاحتياط فى كتاب الله تعالى. حتى تظاهر الكتابة

الحفظ ويعاضد النقشى اللفظ ، ثم يعلمهم صلى الله عليه وسلم مافيه من تشريع وعقائد وأحكام وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة فمنهم أبو بكر الصديق الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبى بكر ومنهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى ومعاوية وأبان بن سعيد . وخالد بن الوليد وأبى بن كعب . وزيد ابن ثابت . وثابت بن قيس . وغيرهم من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربعون كاتباً وكان صلى الله عليه وسلم يدلهم على موضع المكتوب من سورته فيكتبونه فيما يسهل عليهم من السعف (جريدة النخل) واللخاف (الحجارة الرقيقة) والرقاع (قطعة من جلد أو ورق) وقطع الأدم (الجلد) وعظام الأكتاف والأضلاع ثم يوضع المكتوب فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا فلم ينقضى العهد النبوى السعيد إلا والقرآن كله مكتوب ومجموع على هذا النمط بيد أنه لم يكتب فى صحف ولا فى مصاحف بل كتب منثوراً كما سمعت بين العظام والرقاع ونحوها مما ذكر وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب « فقال » (ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا) وعن زيد بن ثابت قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول للنبى صلى الله عليه وسلم فى معنى الحديث ضعوا كذا فى موضع كذا) من سورة كذا) ولاريب أن جبريل عليه السلام كان لا يصدر فى ذلك إلا عن أمر الله عز وجل .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتبون القرآن فمنهم من

كتبه كله مواظباً على ذلك ومنهم من كتب بعضه وكل فيما تيسر له من قرطاس أو كتف أو عظم أو نحو ذلك بالمقدار الذى يبلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يلتزموا توالى السور وترتيبها وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج فى سرية من السرايا مثلا فنزلت فى وقت غيابه سورة فإنه كان إذا رجع يأخذ فى حفظ وكتابة ماينزل بعد رجوعه ثم يستدرك ما كان قد فاته فى غيابه فيجمعه ويتتبعه على حسب مايسهل له فيقع فيما يكتب تقديم أو تأخير بسبب ذلك وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب شيئا جريا على عادة العرب فى حفظ أنسابها وإستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة وهكذا

والخلاصة من ذلك أن القرآن كان مكتوبا كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت كتابته ملحوظا فيها إشتماله على الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن غير أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة وبعض ماهو ثابت بخبر الواحد .

وربما كتبه غير مرتب ولم يكن القرآن وقتئذ مجموعاً فى صحف ولا مصاحف عامة . لاعتبارات كثيرة منها :

أولا : لم يوجد من الدواعى لكتابته مثل ماوجد فى عهد أبى بكر حتى كتبه فى صحف ولا مثل ما وجد فى عهد عثمان حتى نسخه فى مصاحف لأن المسلمين وقتئذ بخير والقراء كثيرون ولم تتسع رقعة الإسلام بعد .

والفتنة مأمونة والمعول عليه فى ذلك الوقت الحفظ أكثر من الكتابة وعناية الرسول بإستظهاره تفوق الوصف وتوفى على الغاية حتى فى طريقة أدائه على حروفه السبعة التى نزل عليها والرسول بين أظهرهم .

ثانيا : كان النبي صلى الله عليه وسلم بصدد أن ينزل عليه الوحى ينسخ ماشاء الله من آية أو آيات . قال بعض المحققين :

لم يجمع القرآن فى مجلد ، على الصحيح فى حياة أحمد .

للأمن فيه من خلاف ينشأ ، وخيفة الوحى بنسخ يطرأ .

ثالثاً : أن القرآن لم ينزل مرة واحدة بل نزل منجما فى مدى عشرين سنة أو أكثر .

رابعا : أن ترتيب آياته وسوره لم يكن على ترتيب نزوله فقدعلمت أن نزوله كان على حسب الأسباب من الحوادث والوقائع ، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الإعتبارات وأنت خبير بأن القرآن لو جمع فى صحف أو مصاحف والحال ماشرحناه لكان عرضة لتغيير هذه الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ أو حدث سبب من الأسباب مع أن الظروف حينذاك كانت لا تساعد وأدوات الكتابة ليست ميسورة وكان التعويل على الحفظ قبل كل شيء .

ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل وكان قد توفى الرسول صلى الله عليه وسلم وأمن النسخ وتقرر الترتيب ووجد من الدواعى ما يقتضى نسخه فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه التى لاقت أحداثا شداداً ومشاكل صعابا وحروب أهل الردة ونحوها ومنها موقعة اليمامة سنة ١٢ إثنى عشرة للهجرة وقد دارت فيها رحى الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب وكانت معركة طاحنة إستشهد فيها كثير من قراء الصحابة وحفظتهم للقرآن قيل ينتهى عددهم إلى السبعين وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة من أجلهم سالم مولى أبى حذيفة وقد هال ذلك المسلمين وعز الأمر على عمر بن الخطاب فدخل على أبى بكر وأخبره الخبر واقترح عليه أن يجمع

القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء فتردد أبو بكر أول الأمر لأنه كان وقافا عند حدود ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ويخاف أن يجره التجديد إلى التبديل أو يسوقه الإنشاء والإختراع إلى الوقوع فى مهاوى الخروج والابتداع .

ولكنه بعد مفاوضة بينه وبين عمر بن الخطاب تجلى له وجه المصلحة فاقتنع بصواب الفكرة وشرح الله لها صدره .

على أن ذلك الجمع الذى يشير به عمر بن الخطاب ماهو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف والمحافظة عليه من الضياع والتحريف وأنه ليس من محدثات الأمور الخارجة ولا من البدع والإضافات الفاسقة .

بل هو مستمد من القواعد التى وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم بتشريع كتابة القرآن وإتخاذ كتاب للوحى .

وجمع ما كتبوه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه .

قال الامام أبو عبد الله المحاسبى فى كتاب فهم السنن ما نصه :

(كتابة القرآن ليست بمحدثة) فإنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابته وقد اهتم أبو بكر رضى الله عنه بتحقيق هذه الرغبة . ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلا من خيرة رجالات الصحابة هو زيد بن ثابت .

لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر فى جمع القرآن مالم يجتمع فى غيره من الرجال إذ كان من الحفاظ ومن كتاب الوحى لرسول الله وشهد العرضة الأخيرة للقرآن فى ختام حياته صلى الله عليه وسلم وكان فوق

ذلك معروفاً بخصوبة عقله وشدة ورعه وعظم أمانته وكمال خلقه واستقامة دينه فاستشار أبو بكر عمر فى هذا فوافقه .

وجاء زيد فعرض أبو بكر عليه الفكرة ورغب إليه أن يقوم بتنفيذها فتردد زيد أول الأمر ولكن أبا بكر مازال به يعالج شكوكه ويبين له وجه المصلحة حتى أطمأن واقتنع بصواب ما ندب إليه .

وشرع زيد بن ثابت بجمع القرآن وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ويعاونونه فى هذا المشروع الجليل حتى تم لهم ما أرادوا (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) . وفى ذلك يروى البخارى فى صحيحه أن زيد بن ثابت قال :

أرسل إلى أبو بكر مقتل اليمامة أى عقب إستشهاد القراء السبعين فى واقعة اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده .

قال أبو بكر رضى الله عنه : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد أستحر (أى إشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت : لعمر كيف نفعل مالم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر قال زيد : قال أبو بكر :

إنك رجل شاب عاقل لانتهمك . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فتتبع القرآن فاجمعه . قال زيد فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى وأراجعه حتى شرح الله للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب(١) واللخاف(٢) وصدور الرجال . حتى وجد آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) حتى خاتمة براءة . وقد ظلت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر . انتهى حتى جاء عهد عثمان بن عفان وحصل ماستعرفه إنشاء الله من جمع القرآن .

فهذا الحديث كما ترى يدل على مبلغ إهتمام الصحابة بالمحافظة على القرآن وعلى مبلغ ثقة أبى بكر وعمر بزيد بن ثابت وعلى جدارة زيد بهذه الثقة لتوفر تلك المناقب التى ذكرها فيه أبو بكر رضى الله عنهما ويؤيد ورعه ودينه وأمانته قوله (فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ، ماكان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن) .

وقد انتهج زيد بن ثابت فى نقل القرآن طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر . فيها ضمان الحيطة لكتاب الله بما يليق به من تثبيت بالغ وحذر دقيق وتحريات شاملة فلم يكتف بما حفظ فى قلبه ولا بما كتب بيده ولا بما سمع بأذنه فقط .

بل جعل يتتبع ويستقصى آخذاً على نفسه وهو زيد بن ثابت الورع صاحب المناقب السابقة أن يعتمد فى جمعه للقرآن على مصدرين إثنين :

أحدهما : ما كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثانيهما : ما كان محفوظاً فى صدور الرجال ، فبلغ فى الحيطة والحذر

---

(١) جريد النخل منزوع الخوص (٢) قطع الحجارة الرقيقة التى تصلح للكتابة عليها

أنه لم يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان على أنه كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يدل على ذلك ما أخرجه بن أبى داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن طب قال : « قدم عمر فقال : من كان تلقى من رسول الله شيئا من القرآن فليأت به » .

وكانوا يكتبون ذلك فى الصحف والألواح والعسب[1] وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان » .

أى عدلان يشهدان على أنه كتب أمام رسول الله عليه الصلاة والسلام وأنه مما ثبت فى العرضة الأخيرة . وأنه لم تنسخ تلاوته .

ويدل على ذلك ما أخرجه أبو داود أيضا لكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ، ولزيد :

« اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه » وهو حديث رجاله ثقات .

قال السخاوى فى جمال القراء ما يفيد أن المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده ولذلك قال فى الحديث الذى رواه البخارى سابقا .

(أنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبى خزيمة . أى لم يجدها إلا مع أبى خزيمة . أى لم يجدها مكتوبة إلا مع أبى خزيمة الأنصارى . مع أن زيداً كان يحفظها وغيره كثير من الصحابة يحفظونها .

---

(١) جريد النخل منزوع الخوص .

ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة زيادة في التوثق ومبالغة في الاحتياط . وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة دون نكير ، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ولعمر في الاقتراح ولزيد في التنفيذ وللصحابة في المعاونة والإقرار .

ويقول الشيخ عبد الفتاح القاضي في كتابه تاريخ المصحف . وقد راعى زيد في كتابة هذه الصحف أن تكون مشتملة على ما يثبت قرآنيته بطريق التواتر . واستقر في العرضة الأخيرة ولم تنسخ تلاوته وأن تكون مرتبة الآيات والسور جميعاً ولا يطعن في التواتر ما مر عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند أبي خزيمة الأنصاري .

فإن المراد أنه لم يوجد مكتوباً إلا عنده . ولا ينافي أنه وجد محفوظاً عند كثرة غامرة من الصحابة بلغت حد التواتر وقد روعي كذلك أن تكون تلك الصحف مجردة عما ثبتت قرآنيته بطريق الآحاد ولا ما نسخت تلاوته .

وعما ليس بقرآن من شرح أو تأويل لكلمة . وظلت هذه الصحف التي جمع فيها القرآن في رعاية الخليفة الأول أبي بكر مدة خلافته .

ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مدة خلافته ثم عند حفصة بنت عمر بعد وفاة أبيها إلى أن طلبها منها والي المدينة مروان فأبت عليه فلما توفيت طلبها من أخيها عبد الله فبعث بها إليه فأمر بإحراقها .

وقال إنما فعلت هذا لأني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب ، لكن لم يأمر مروان بإحراق هذه الصحف إلا بعد أن أمر عثمان رضي الله عنه بنسخ المصاحف العثمانية وإرسالها

إلى الأمصار ثم أمره بإحراق ماعداها من المصاحف والصحف الأخرى.

ولا يغبن عن بالك أن هذا الجمع كان شاملا للأحرف السبعة في الرقاع كذلك.

وهذا خلاصة جمع أبي بكر للقرآن. قال علي كرم الله وجهه «أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر. رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله».

أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن وفي هذا الأثر رد صريح على من قال إن أول من جمع القرآن بين اللوحين علي بن أبي طالب وعلى من قال أول من جمعه سالم مولى أبي حذيفة أو عثمان بن عفان فهذه الأقوال كلها على فرض صحتها لا تطعن في كون أبي بكر رضي الله عنه هو أول من جمع القرآن غير أن جمعه كان في صحف وأوراق متفرقة مرتب الآيات.

وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها القرآن منتشر فجمعها جامع وربطها حتى لا يضيع منها شيء أما القول بأن أحداً من هؤلاء هو أول من جمع القرآن فالمراد جمعه بين اللوحين في مصحف واحد.

أما جمع عثمان رضي الله عنه فكان عندما اتسعت رقعة الإسلام وكثرة الفتوحات الإسلامية وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار وكان أهل كل أقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة فأهل المدينة يقرءون بقراءة أبي بن كعب وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري وهكذا.

فكان بينهم اختلاف في وجوه القراءة. ومنشأ هذا الاختلاف

إنزال القرآن على سبعة أحرف كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق التواتر وكان الذى يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الأمصار إذا احتوتهم الجامع أو التقوا على جهاد أعدائهم يعجب كل العجب وكانوا يمعنون فى التعجب والإنكار كلما سمعوا زيادة فى اختلاف طرق أداء القرآن ، وتأدى بهم التعجب إلى الشك والمداجاة ثم إلى التأثيم والتكذيب وتيقظت الفتنة التى كادت تطيح فيها الرءوس .

وتسفك فيها الدماء وتقود المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى فى كتبهم . وفى ذلك يروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه ، أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق .

فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان . يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة .

أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك . فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير . وسعيد ابن العاص . وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

فنسخوها فى المصاحف . . وقال عثمان الرهط والقرشيين الثلاثة (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف . رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى . كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق) انتهى .

ومعنى قوله فإنما نزل بلسانهم أى أغلبه) وكان نسخ هذه المصاحف بإشراف الخليفه عثمان . وأعلام الصحابة من المهاجرين والأنصار وكانوا لايكتبون فى هذه المصاحف شيئا إلا بعد أن يعرض على الصحابة جميعا ويتحققوا أنه قرآن وأنه لم تنسخ تلاوته .

وأنه استقر فى العرضة الأخـيرة فلم يكتبوا ما نسخت تلاوته ولا مالم يكن فى العرضة الأخيرة ولا ماكانت روايته آحادكالذى كان يكتبه بعض الصحابة فى مصاحفهم الخاصة شرحا لمعنىأوبيانا لناسخ أومنسوخ أو نحو ذلك .

مثل « فامضوا إلى ذكر الله » بدل فاسعوا :

ونحو « وكان ورائهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » بزيادة كلمة صالحةإلىغير ذلك . وقد كتبوا مصاحف متعددة فصوب ابن عاشر أنها ستة المكى والشامى والكوفى والمدنى العام الذى سيره عثمان من محل نسخه إلى مقره ، والمدنى الخاص الذى حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام وقيل هى ثمانية وقيل خمسة ولعل القول بأن عددها ستة هو أولى الأقوال بالقبول على أن معرفة العدد لا يتعلق به كبير غرض مادام عثمان رضى الله عنه استنسخ عددا من المصاحف بفى بحاجة الأمة وجمع كلمتها وإطفاء فتنتها لأن عثمان رضىالله عنه قصدبذلك إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين ، وهى الأخرى متعددة .

وقد كتبوها متفاوتة فى الإثبات والحذف والبدل وغيره لأنه رضى الله عنه أراد بذلك اشتمالهـا على الأحرف السبعة .

وجعلوها خالية من النقط والشكل تحقيقاً لهذا الاحتمال أيضا . فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عندتجردها من النقط والشكل نحو (فتثبتوا) من قوله تعالى (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)[1] فإنها تصلح

(١) من آية ٦ منسورة الحجرات .

أن تقرأ (فتثبتوا) عند خلوها من النقط والشكل وهى قراءة أخرى متواترة وكذلك كلمة (ننشزها) من قوله تعالى (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) فإن تجردها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحة عندهم أن يقرؤها (ننشزها) بالزاى وهى قراءة متواترة أيضاً وننشرها بالراء المهملة وكذلك كلمة (أف) التى ورد إنها تقرأ بروايات عديدة بين متواتر وشاذ فتجردها من النقط والشكل يجعلها صالحة كذلك لتقرأ بأى وجه ورد فيها .

أما الكلمات التى لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها ورد فيها قراءات أخرى . فإنهم كانوا يكتبونها فى بعض المصاحف برسم يدل على قراءة وفى البعض برسم آخر يدل على القراءة الثانية كقراءة (ووصى بها إبراهيم بنيه) بالتضعيف وفى أخرى وأوصى بها إبراهيم بنيه بزيادة الهمز وهما قراءتان فى قوله تعالى (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) وهكذا وقد امتازت هذه المصاحف التى نسخها عثمان رضى الله عنه على الوضع المتقدم وأرسلها إلى الأمصار وأرسل مع كل مصحف إماماً عدلا ضابطاً تكون قراءته موافقة لما فى هذا المصحف غالباً .

فأمر زيد بن ثابت أن يقرىء بالمصحف المدنى . وبعث عبد الله بن السائب مع المصحف المكى . والمغيرة بن شهاب مع الشامى . وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى وعامر بن قيس مع البصرى وقد قام التابعون بعد ذلك مقام الصحابة ، ثم تفرغ جماعة للقراءة والإقراء والتعلم والتعليم . حتى صاروا أئمة يقتدى بهم ويؤخذ عنهم .

وأجمع كل أهل بلد على تلقى قراءتهم . واعتماد روايتهم ومن هنا نسبت القراءة إليهم وأجمعت الأمة وهى معصومة من الخطأ فى إجماعها على ما فى هذه المصاحف وعلى ترك ما سواها إذ أنه لم يثبت عندها ثبوتاً متواتراً أنه من القرآن إلا فى هذه المصاحف .

وقد حظيت المصاحف العثمانية بكل الرضا والقبول من أصحاب رسول الله ﷺ جميعاً فوقفوا منها موقف التأييد والمؤازرة واستجابوا لنداء الخليفة عثمان فحرقوا مصاحفهم ، واجتمعوا على المصاحف العثمانية .

وأما ماورد من أن عبد الله بن مسعود أنكر بادىء ذى بدء على عثمان عمله فى المصاحف فلأنه آثر عليه فى كتابتها . زيد بن ثابت ، مع قدم إسلام ابن مسعود على زيد فكان يرى أنه أحق منه بهذه المهمة .

ولكنه ما لبث أن رجع مستجيباً مقراً لما صنعه عثمان واتفقت عليه كلمة الصحابة : وقد أخرج ابن أبى داود بسند صحيح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال لا تقولوا فى عثمان إلا خيرا . « فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله» .

قال ما تقولون فى هذه القراءة ، فقد بلغنى أن بعضهم يقول إن قراءتى خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفرا .

قلنا فما ترى قال أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد . فلا تكون فرقة ولا اختلاف قلنا ، فنعم ما رأيت .

وورد عن على كذلك أنه قال : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان . انتهى .

فرضى الله عن عثمان فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربه وحافظ على القرآن وجمع كلمة الأمة . وأغلق باب الفتنة . ولا يزال المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هـــذا إلى اليوم وما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

فكيف بعد ما علمت من تلك العناية والحيطة والتثبيت من رسول الله

صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه من بعده بالقرآن الكريم من يوم نزوله إلى أن تلقته الأمة بالقبول والرضا والإجماع وإلى أن تقوم الساعة كيف يستساغ لهؤلاء المغرضين المعوقين القول بأن نص القرآن الموجود قد حصل فيه اضطراب كبير وتحريف وتبديل وزيادة ونقصان مستدلين على سخافة أقوالهم بما أوردوه من أدلة هي ليست فى الحقيقة أدلة وإنما هي سهام يسددونها إلى الدين الإسلامى ويتخذون من علوم القرآن مثاراً اشبهات يلفقونها زوراً وبهتانا ويروجونها ظلما وعدوانا، وسنرد على هذه الأدلة بما يقنع كل عاقل ويرد كل ضال إلى صوابه .

أما قولهم أولا : إن طريقة كتابة القرآن وجمعه كانت بدائية الخ .

فنقول نقضا لكلامهم هذا : إن ما ثبت فى طريقة كتابة القرآن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمع أصحابه له من بعده وتثبتهم من كل آية يكتبونها وأنها كتبت بين يديه وبتوقيف منه ووضعهم الآية بعد الآية مرتب الآيات بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل رقعة أو عظمة وإن كانت العظام والرقاع منتشرة ومبعثرة لكن كما سبق قررنا أن الاعتماد كان على الحفظ والتلقى قبل كل شىء فلم يكن التعويل على المكتوب وحده فلا جرم كان فى الحفظ والكتاب معا أكبر ضمان للنظام والترتيب والضبط والحصر لآيات القرآن فهذا كله لأكبر دليل على بطلان قولهم وعلى رد سهامهم الموجهة إلى القرآن فى نحورهم وأن أدلتهم التى أوردها لذلك باطلة لا سند لها ولا حجة عليها .

وأما قولهم واحتجاجهم بأن كثيراً من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى الحفظ فى صدور الصحابة وقد قتل كثير منهم وذهب معهم ما كانوا يحفظونه) فهذا القول لا يسلم لهم : لأن نفس ما كان يحفظه الشهداء من

القراء كان يحفظه كثير غيرهم أيضاً من الأحياء الذين لم يستشهدوا ولم يموتوا وكان الصحابة حينذاك زهاء اثنى عشر ألف رجل بينهم الجم الغفير من الحفاظ والقراء ، بدليل قول عمر رضى الله عنه (وأخشى أن يموت القراء من سائر المواطن) .

ومعناه أن القراء كلهم لم يموتوا إنما المسألة مجرد خشية وخوف ومعلوم أن أبا بكر رضى الله عنه كان من الحفاظ وكذلك عمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت وغيرهم كثير وقد عاش هؤلاء حتى جمع القرآن فى الصحف وعاش منهم كثير حتى نسخ فى المصاحف وحينئذ فكتابة زيد هى كتابة لكل القرآن لم تفلت منه كلمة ولا حرف فدعواهم أنه سقط من القرآن شىء بموت بعض الحفظة دعوى باطلة ولا سند لها بعد هذا البيان وأما دعواهم أن ماضاع من القرآن فى زعمهم الباطل لم يكن مكتوبا فضاع لفظه وبقى معناه وهو مايسمى بالمنسوخ لفظا وبقى معنى فهذه دعوى باطلة من أساسها كذلك لأننا أقمنا الدليل الواضح على أن القرآن الكريم لم يفلت منه شىء لا كلمة ولا حرف فهو من نزوله محفوف بالعناية الربانية قبل عناية الرسول وصحابته به وذلك أخذا من وعد الله تعالى بحفظه) فى قوله تعالى

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

وبما أقمنا من الأدلة على عناية الصحابة فى الاستيثاق فى جمعه وترتيبه وحفظه ، وأما مسألة الناسخ والمنسوخ فهذا باب طويل فى علوم القرآن وفى علم الأصول وقد ثبت بالكتاب والسنة ولا سبيل لإنكاره وقد وضعت فيه الكتب الكثيرة وكتب التفسير وعلوم القرآن حافلة به قال تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

فلا معنى لقولهم : وهو مازعم العلماء بأنه قسم من القرآن نسخ لفظه وبقى معناه ، ويعنون بذلك القسم الضائع من القرآن فى زعمهم الباطل .

وأما قولهم : إن الصحابة كانوا يحذفون من القرآن ما يرون المصلحة فى حذفه فقد حذف على آية المتعة وأسقطها وكان يضرب عليها : وهذا مما شنعت به عائشة عليه .

فقالت إنه كان يجلد على القرآن وينهى عنه . وقد حذف عبدالله بن مسعود الفاتحة والمعوذتين ونجد أبى بن كعب أضاف إلى المصحف سورتى الخلع والحفد وقد وجدنا نصوصا تدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينسى بعض القرآن بدليل الاستثناء فى قوله تعالى .

« سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله »

وقوله نفسه صلى الله عليه وسلم : (لقد أذكرنى آية كذا وكذا كنت أنسيتها) وفى رواية كنت أسقطتهن من المصحف .

فنقول ردآ على قولهم إن الصحابة كانوا يحذفون من القرآن الخ ، هذا قول باطل من أصله ومردود عليهم لأن قولهم هذا قائم على إهمالهم النصوص الصحيحة المتضافرة على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن .

وكانوا أيقظ الخلق فى حراسة القرآن . ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر وردوا كل ما لم يثبت تواتره لأنه غير قطعى ويأبى عليهم دينهم وعقيدتهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعى .

وقد سبق لك بيان ما وضعوه من الدساتير الحكمة الرشيدة فى كتابة الصحف على عهد أبى بكر . وكتابة المصاحف على عهد عثمان فارجع إليها إن شئت لتعرف مدى إمعان هؤلاء المبطلين فى التجنى على أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم . فإذا كان هؤلاء الطاعنون يريدون أن يلمزوا الصحابة ويعيبوهم بحيطتهم البالغة فى كتاب الله إلا أنهم أسقطوا مالم يتواتر وما لم يكن فى العرضة الأخيرة وما نسخت تلاوته .

وكان يقرؤه من لم يبلغه النسخ . نقول لهم إذا كانوا يريدون أن يعيبوا على الصحابة ويلمزوهم بذلك :

فالأولى لهم أن يلمزوا أنفسهم وأن يواروا سوأتهم . لأن المسلمين كانوا ولايزالون أكرم على أنفسهم من أن يقولوا فى كتاب الله بغير علم . وأن وأن ينسبوا إلى الله مالم تقم عليه حجة قاطعة وأن يسلكوا بالقرآن مسالك الكتب السابقة من التوراة المحرفة والأناجيل المبدلة ، من نحو ماقصه علينا القرآن من أعمالهم المخزية فى كتبهم كقوله تعالى :

(يحرفون الكلم من بعد مواضعه)(١)

وقوله تعالى (يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به) وقوله تعالى (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)(٢) قبحهم الله فى الدنيا والآخرة

وأما قولهم إن عليا حذف آية المتعة ، وأضاف أبى بن كعب إلى المصحف سورتى الخلع والحفد فهو كلام باطل كذلك لما يأتى :

أولا : أن آية المتعة التى يزعمونها وصيغة القنوت التى يحكون لم تثبت قرآنيتهما حتى يكونا فى عداد القرآن ثم حذفتا . وإن ادعوا أنهما من القرآن

---

(١) من آية ٤١ من سورة المائدة .
(٢) من آية ١٢ من سورة المائدة .

فعليهم الإتيان بالدليل على مايدعون قال الإمام أبو بكر الباقلانى فى كتابه (الانتصار لنقل القرآن) :

إن كلام القنوت المروى من أن أبى بن كعب أثبته فى مصحفه . لم تقم الحجة على أنه قرآن منزل من عند الله بل هو ضرب من الدعاء وأنه لو كان قرآنا انقل إلينا نقل القرآن وحصل العلم بصحة :

ثم قال : ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآنا منزلا ثم نسخ وأبيح الدعاء به وخلط بما ليس بقرآن . ولم يصح عنه ذلك . إنما روى عنه أنه أثبته فى مصحفه . وقد أثبت فى مصحفه غيره مما ليس بقرآن من دعاء أو تأويل ، وهذا الدعاء هو القنوت الذى أخذ به السادة الحنفية . وبعضهم ذكر أن أبيا رضى الله عنه كتبه فى مصحفه وسماه سورة الخلع والحفد لورود مادة هاتين الكلمتين فيه ، على أننا أشرنا فيما سبق أن بعض الصحابة كان يكتب لنفسه صحفاً أو مصحفاً خاصاً به وربما كتب فيه ماليس بقرآن مما يكون تأويلا لبعض ما غمض عليه من معانى القرآن أو مما يكون دعاء يجرى مجرى أدعية القرآن فى أنه يصح الإتيان به فى الصلاة عند القنوت مع علمهم أن ذلك ليس بقرآن ، ولكن لندرة أدوات الكتابة حينذاك ولكنهم كانوا يكتبون لأنفسهم وحدهم دون غيرهم هون عليهم ذلك لأنهم أمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره . فظن بعض قصار النظر أن كل ماكتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن مع أن الحقيقة ليست كذلك ، أضف إلى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى عليه حين من الدهر نهى عن كتابة غير القرآن ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه مسلم (لاتكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى شيئا غير القرآن فليمحه) .

وذلك مخافة اللبس والخلط والاشتباه فى القرآن وقد سبق أن

قررنا بأن الصحابة أجمعوا على المصاحف التى كتبها عثمان رضى الله عنه واستجابوا له جميعاً فى حرق ماعداها مما لم تثبت قرآنيته .

وأما قولهم إن عبد الله بن مسعود حـــذف الفاتحة والمعوذتين من القرآن فهو قول باطل ومردود بأن ابن مسعود لم يصح عنه هذا النقل الذى تمسكوا به من إنكاره كون المعوذتين والفاتحة من القرآن .

قال النووى فى شرح المهذب مانصه (أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن وأن من جحد شيئا منها كفر ، وأما ما نقل عن بن مسعود فباطل ليس بصحيح) .

وقال بن حزم فى كتاب القدح المعلى : (هذا كذب على ابن مسعود وموضوع) .

بل الذى صح عن بن مسعود نفسه قراءة عاصم . وفيها المعوذتان والفاتحة وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر (أنه صلى الله عليه وسلم قرأهما فى الصلاة . زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة أيضا) .

فإن إستطعت ألا تفوتك قراءتهما فى صلاة فافعل . وأخرج أحمد من طريق أبى العلاء بن الشخير عن رجل من الصحابة أن النبى صلى الله عليه وسلم أقرأنا المعوذتين وقال له :

إذا أنت صليت فاقرأ بهما . وإسناده صحيح ، ويحتمل أن إنكار ابن مسعود قرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته كان قبل علمه بنزولها فلما تبين له قرآنيتهما بعد التواتر وإنعقد الإجماع على قرآنيتهما كان فى مقدمة من آمن بأنهما من القرآن ، وقال بعضهم :

ويحتمل أن بن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبى صلى الله عليه وسلم

ولم تتواتر عنده فتوقف فى أمرهما . وإنما لم ينكر ذلك عليه لأنه كان بصدد البحث والنظر والواجب عليه التثبت فى هذا الأمر فلما تثبت من هذا الأمر وتبينه لم ينكره .

(ولعل هذا الجواب هو الذى تستريح إليه النفس) .

لأن قراءة عاصم عن زرعة عن مسعود ثبت فيها المعوذتان والفاتحة وهى صحيحة ونقلها عن بن مسعود صحيح ومايقال فى رد إنكاره فى المعوذتين يقال فى الفاتحة فإن نقل إنكاره للفاتحة أدخل فى البطلان وأعرق فى الضلال باعتبار أن الفاتحة أم القرآن وقيــــل إنها نزلت مرتين وأنها السبع المثانى وتتكرر فى كل ركعة من ركعات الصلاة على لسان كل مسلم ومسلمة .

على أننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين والفاتحة أو أنكر القرآن كله وحاشاه ذلك فإن هذ الإنكار لا يضرنا فى شىء لأنه لاينقص تواتر القرآن ولايرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر .

ولم يقل أحد فى الدنيا إن من شرط التواتر والعلم اليقينى المبنى عليه ألا يخالف فيه مخالف وإلا أمكن هدم كل التواتر ، وإبطال كل علم قام عليه . بمجرد أن يخالف فية مخالف ولو لم يكن ذا شأن .

قال بن قيبة فى مشكل القرآن : (ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن لأنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه . وأنهما من الأدعية .

ولا نقول إنه أصاب فى ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار ، وعلى كل حال إذا كان إنكار بن مسعود للمعوذتين جاء من طريق صححه ابن حجر فليعمل هذا الإنكار على أولى حالات بن مسعود كما قررنا جمعا بين الروايتين .

وأما قولهم :

قد وجدنا نصوصاً تدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ينسى بعض القرآن بدليل الإستثناء فى قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله) وقوله نفسه صلى الله عليه وسلم (لقد أذكرنى آية كذا وكذا كنت أنسيتها) وفى رواية (كنت أسقطتهن من المصحف) ألخ .

نرد على ذلك بأن : هذا النص الذى أوردوه لا يكون حجة لهم فى هذا الزعم الباطل والشك البين فى الأصل المتين الذى قامت عليه كتابة القرآن وجمعه فى جميع أطواره .

فإن هذا الأصل سليم قويم وهو وجود هذه الآيات مكتوبة فى الوثائق التى استكتبها الرسول صلى الله عليه وسلم ووجودها محفوظة فى صدور أصحابه الذين تلقوها عنه . والذين يبلغ عددهم مبلغ التواتر وأجمعوا جميعا على صحته .

كما عرف ذلك فى دستور جمع القرآن من قبل ، إنما غاية مايدل عليه هذا الحديث هو أن قراءة ذلك الرجل ذكرت النبى صلى الله عليه وسلم تلك الآية التى كان قد أنسيها أو أسقطها نسيانا .

وهذا النوع من النسيان كما قال العلامة الزرقانى : لا يزعزع الثقة بالرسول ولا يشكك فى دقة جمع القرآن ونسخه ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد حفظ هذه الآيات من قبل أن يحفظها ذلك الرجل ثم استكتبها كتاب الوحى وبلغها الناس فحفظوها عنه ومنهم هذا الرجل صاحب هذه الرواية : وهو عباد بن بشار رضى الله عنه على ماروى وليس فى هذا الحديث الذى ذكروه مايدل على أن هذه الآية أو الآيات لم تكن بالمحفوظات التى كتبها كتاب الوحى ولا مايدل على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوها

جميعاً حتى يخاف عليها وعلى أمثالها الضياع ويخشى عليها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف الإمام كما يفترى هؤلاء الأفاكون .

فإن الرواية للحديث نفسها تثبت صراحة أن فى الصحابة من كان يقرؤها ويسمعها الرسول منه ، ثم إن دستور جمع القرآن الذى تقدم يؤيده أنهم كانوا لم يكتبوا فى المصحف إلا ما يظاهر فيه الحفظ الكتابة والإجماع على قرآنيته . ومنه هذه الآيات التى هى ذات الموضوع وموضع الإشكال .

ثم لا يغيب عنك فى هذا المقام معرفة شيئين (الأول) أن كلمة (أسقطتهن) فى بعض روايات الحديث معناها أسقطتهن نسيانا تدل على ذلك كلمة (أنسيتهن) فى الرواية الأخرى :

ومحال ثم محال أن يراد به الإسقاط عمدا لأن الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم لا ينبغى له ولا يعقل منه أن يبدل شيئا فى القرآن بزيادة أو نقص من تلقاء نفسه وإلا لكان خائنا أعظم الخيانة فيما يبلغ عن ربه . والخائن لا يمكن أن يكون رسولا وحاشاه ذلك . هذا ما يحكم به العقل المجرد عن الهوى وكذلك حكم النقل أيضا فى كتاب الله .

قال تعالى فى هذا المقام «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجعون لقاءنا ائت بقرءان غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء إلى نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »

« قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون »[١] .

---

(١) آية ١٥ ، ١٦ من سورة يونس .

وقد سبق أن بينا أن الله قد وعد بحفظ كتابه من كل نائلة وطائلة فلم تمتد إليه يد العابثين بتحريف ولا تبديل وصدق الله إذ يقول :

(إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

الشيء الثاني :

أن رويات هذا الخبر لا تفيد ان هذه الآيات التى سمعها الرسول صلى الله علية وسلم من عباد بن بشار قد أنمحت من ذهنه الشريف جملة وغاية ما تفيده أنها كانت غائبة عنه ثم ذكرها وحضرت فى ذهنه بقراءة عباد : وغيبة الشيء عن الذهن أو غفلة الذهن عن الشيء غير محوه منه . بدليل أن الحافظ منا لأى نص من النصوص قد يغيب عنه هذا النص إذا اشتغل ذهنه بغيره . وهو يوقن فى ذلك الوقت بأنه مخزون فى حافظته بحيث إذا دعا إليه داع استعرضه واستحضره ثم قرأه : أما النسيان التام المراد به انمحاء الشيء من الحافظة فإنه مستحيل على النبى صلى الله عليه وسلم وخاصة فيما يخل بوظيفة الرسالة والتبليغ .

فإن عرض له من النوع الأول شيء فهو كطيف خيال لم يمر إلا ايزول ، ولا شك فى أن نسيان الرسول هنا كان بعد أن أدى وظيفته وبلغ الناس القرآن وحفظوا عنه . فهو نسيان لم يخل بالرسالة والتبليغ كما سبق .

قال البدر العينى فى باب نسيان القرآن من شرحه لصحيح البخارى ما نصه :

وهو قول الجمهور كذلك (جاز النسيان عليه) (أى على النبى صلى الله عليه وسلم) فيما ليس طريقه البلاغ والتعليم (بشرط أن لا يقر عليه بل لابد أن يذكره) . وأما غيره مما ليس الشأن فيه التبليغ فلا يجوز قبل التبليغ وإما نسيان ما بلغه كما فى هذا الحديث فهو جائز بلا خلاف) اه .

وقد طعن البعض فى رواية هذا الحديث واتهمها بالوضع والدس لكن نص البعض على أن الخبر صحيح رواه الشيخان .

ففى صحيح البخارى عن هشام عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت (سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأ فى المسجد) فقال :

يرحمه الله لقد أذكرنى كذا وكذا آية من سورة كذا ، زاد فى رواية أخرى (ما معناه كنت قد أسقطتهن من سورة كذا وكذا) .

وفى صحيح مسلم عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرأ من الليل فقال (يرحمه الله لقد أذكرنى كذا وكذا آية كنت أسقطتها من سورة كذا وكذا) وأنت تعلم أن معنى الإسقاط هنا النسيان كما سبق (بدليل الرواية الأخرى ففى التبيان للنووى ما نصه (وثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرأ فقال (يرحمه الله لقد أذكرنى آية كنت أسقطتها) وفى رواية فى الصحيح (كنت أنسيتها) انتهى فسبحان من لا يضل ولا ينسى وأما استدلالهم على أن الرسول كان ينسى بدليل الاستثناء فى قوله تعالى (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) ، فهذا الاستدلال لا يقوم حجة على زعمهم الباطل وذلك لأنه استثناء صورى لا حقيقى ، والحكمة فيه أن يعلم الله عباده أن عدم نسيان الرسول الرسول الذى وعده الله إياه فى قوله (فلا تنسى) إنما هو محض فضل من الله وإحسان ولو شاء سبحانه أن ينسيه لأنساه .

وإن فى هذا الاستثناء الصورى لفائدتين عظيمتين الأولى ترجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم حيث يشعر دائماً أنه مغمور بنعمة الله ورعايته مادام متذكراً للقرآن لا ينساه .

والثانية تعود على أمته حيث يعلمون أن نبيهم صلى الله عليه وسلم



مهما خصه الله من عطايا ونعم لم يخرج عن دائرة العبودية والبشرية فلا يفتنون به كما افتتن النصارى فى المسيح بن مريم أما الدليل على أن هـــذا أن الاستثناء صورى لاحقيق ماجاء فى سبب النزول لهذه الآية وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعب نفسه بكثرة القراءة للقرآن حتى وقت نزول الوحى مخافة أن يفلت منه شيء أو ينساه .

فاقتضت رحمة الله تعالى بحبيبه وبرسوله أن يطمئنه من هذه الناحية ويريحه من هذا الخوف فنزلت هذه الآية كما نزلت آية (لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأنا فاتبع قرآنه وآية (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل ربى زدنى علما) .

على أن قوله تعالى : (إلا ماشاء الله) فيه تعليق وقوع النسيان على مشيئة الله وقد تكفل الله تعالى بحفظه إياه فى نحو قوله (إن علينا جمعه وقرآنه) وإذن النسيان لم يقع . للعلم بأن عدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلق . فالذى عنده تذوق لأساليب اللغة ونظر فى وجوه الأدلة لا يتردد فى أن الآية وعد أكيد من الله بأن الرسول يقرئه الله فلا ينسى) وعدا منه على وجه التأبيد .

من غير استثناء حقيقى لوقت من الأوقات وإلا لما كانت الآية مطمئنة له عليه الصلاة والسلام . ولكان نزولها أشبه بالعبث ولغو الكلام ويقول بعض العلماء أن هذا ضرب من استعمال القلة فى معنى النفى وعليه جاء الاستثناء فى قوله تعالى فى سورة هود عليه السلام .

(وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ)[1] أى مقطوع فالاستثناء فى مثل هذا

---

(١) آية ١٠٨ من سورة هود .

للتنبيه على أن ذلك التأييد والتخليد بمحض كرم الله وسعة جوده لا بتحتيم عليه وإيجاب وأنه لو أراد أن يسلب ماوهب لم يمنعه من ذلك مانع .

وكل ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم نسى شيئاً كان يذكره . فذلك إن صح فهو فى غير ماأنزل الله من الكتاب فى الأحكام التى أمر بتبليغها . وكل مايقال غير ذلك . فهو من مفتريات المبطلين ومدخلات الملحدين التى دخلت على عقول السذج والمغفلين . فلو ثوابها ماطهره الله من كل الدنايا ورباه على عينه واصطنعه لنفسه وشرفه على جميع خلقه . فلايليق بمن يعرف قدر صاحب تلك الشريعة السمحاء ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشيء من ذلك .

هذا رأى فى معنى الاستثناء وهناك رأى آخر فيه . وهو أنه استثناء حقيقى غير أن المراد بهذا المستثنى منسوخ التلاوة من القرآن دون غيره . ويكون معنى الآية أن الله تعالى يقرىء نبيه فلا ينسيه إلا ماشاءه . وهو مانسخت تلاوته لحكمة من الحكم التى بينها العلماء فى مبحث النسخ : بدليل قوله تعالى (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منه أو مثلها)[1]

وعلى كل حال : فالاستثناء فى الآية (سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله) لايفهم منه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نسى حرفا واحدا مما أمر بتلاوته وتبليغه للخلق وذلك إن أريد بالنسيان المحو التام من الذاكرة .

أما إن أريد به غيبة الذهن عنه فى وقت ما من الأوقات فقد سبق بيان القول فيه قريبا والله يرشدك .

---

(١) من آية ١٦ من سورة البقرة .

أما ما نسبوه إلى الحجاج بن يوسف الثقفى : فهى نسبة كاذبة وفرية لا برهان لهم بها ولا دليل لهم عليها .

وهاهو التاريخ خير شاهد وعادل . فليأتوا لنا منه بدليل بين على أن الحجاج جمع المصاحف فى يوم ما من الأيام فضلا عن أنه نقص منها أو زاد فيها . ولو أنه فعل ذلك لنقل إلينا بالتواتر لأن هذا أمر ليس بالهين ، بل هو من الأمور التى تتوافر الداعى على نقله وتواتره ، ثم كيف يفعل ذلك والأمة كلها تقرأ القرآن وأئمة الدين الموجودون فى عهده كالحسن البصرى وغيره يسكتون ولا ينكرون ولا يدافعون . على أن الحجاج كان عاملا من العمال على بعض أقطار الإسلام كالعراق والحجاز والبحرين وماجاورها من هذه المنطقة فأنى له أن يجمع المصاحف ويحرقها فى غير ولايته التى هو عامل عليها . وإذا فرض أن الحجاج كان له من السلطة والقوة مايسكت به من كانوا فى زمانه على أن هذا خطب جلل وفعلة نكراء وخرق واسع فى الإسلام والقرآن . فما الذى أسكت المسلمين وحماة الدين بعد انقضاء عهد الحجاج . ولو استطاع الحجاج أن يتحكم فى المصاحف ويتلاعب فيها بالزيادة أو النقص فكيف يستطيع التحكم فى قلوب الحفاظ وهم الآلاف المؤلفة فى ذلك العهد حتى يستطيع أن يمحو فيها ماشاء ويثبت ماأراد .

فهذه دعوة باطلة تحمل بطلانها فى ألفاظها وتدل على جرأة هؤلاء الملحدين وإغراقهم فى الجهل والضلال، وكل الذى نسب إلى الحجاج أنه كان واليا فيه شدة وقسوة وظلم وعدوان فى ولايته أمات بها النخوة العربية والشهامة البدوية فقتل من قتل ونفى من نفى من المسلمين لكن التاريخ لم يثبت أنه تعرض فى شدته وقسوته لأى ناحية عقدية أو قرآنية .

فإن قيل إن الإمام أبا بكر الباقلانى قال فى كتابه (الانتصار لنقل القرآن) (وقد روى الناس عن الحجاج أنه غير حروفا من مصاحفهم وأسقط حروفا كانت فيها،

كذلك وقد روى أن الحجاج قدم العراق ولم يكن أحد من الأمراء أشد نظراً فى المصاحف منه . وكان الناس يكتبون فى مصاحفهم (أشياء أشياء) فكانوا يكتبون (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)(وليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج) وأشياء غير هذا.

فبعث الحجاج إلى حفاظ البصرة وخطاطها فجمعهم عنده ثم أدخل عليه منهم خمسة هم :(أبو العالية ، نصر بن عاصم الجحدرى ، وبن أصمع ، ومالك بن دينار) والحسن وبعث إلى الحجاج فأتى له بمصحف عثمان وهو حينذاك عند آل عثمان . فقال لهؤلاء الخمسة :

أكتبوا المصاحف وأعرضوا وصيروا فيما إختلفتم فيه إلى قول هذا الشيخ يعنى الحسن فغيروا أحد عشر حرفا بأمر الحسن والجماعة المذكورة قال الراوى قلت لمالك من ولى له العرض . قال عاصم الجحدرى قلت الحسن فيهم . قال : كان شيخهم . وسألنا عن حروفه فحسبناها (فأجبناه) فقال : قد أصبتم وأحسنتم . وعملناه له فى أربعة أشهر .

وقيل إن الحجاج كان يختم القرآن فى كل ليلة ، فهذه جملة أدلة تكشف فيها عن بطلان ظنهم وما نسبوه للحجاج من أنه غير فى المصحف وزاد ونقص فيها وفى بعض الروايات المشهورة أن الحجاج أمر عاصم الجحدرى وبن إصمع بتتبع المصحف وأمرهم أن يقطعوا كل مصحف وجدوه مخالفاً لمصحف عثمان ويعطوا صاحبه ستين درهما وهذا لا يعارض ماروبناه من أنه نصب خمسة لهذه المهمة فقد جعل منهم عاصمـــا للعرض وجعل بن إصمع باحثه لتقطيع المصاحف المخالفة وأداء الدراهم فمن ظن أن الحجاج غير شيئاً كان فى مصحف عثمان فقد ظن جهلا وافترى عليه كذباً .

ودل بذلك على قصوره عن معرفة ماركبت عليه العادات العربية ، أما واحدة فإن الحجاج كان من شيعة عثمان فكيف يسوغ لمن هذه حاله الطعن على

عثمان وتغيير مصحفه مع إنه كان يقرأ ويأخذ عن القراء وعن الأستاذين السابقين ، ولقد روى أنه قال ليحيى بن يعمر :

أتسمعنى ألحن ، فقال له يحيى بن يعمر : الأمير من أفصح الناس . قال لتخبرني . قال : نعم (قال) فيم إذن . قال : فى القرآن . قال هو أشنع قال : فى أى موضع ؟ قال : فى سورة براءة تقرأ (أحب إليكم) برفع قال : لاجرم (لا تسمعن لى لحناً بعدها فسير إلى خراسان .

فكيف من كان هذا حفظه وتيقظه ورجوعه إلى العلماء فى كل شىء ، هل يجوز لظان أن يظن أنه غير فى القرآن وبدل وكيف يصح له أن يغير وقد علم أنه لو عرض الناس على السيف لم يرجعوا عما أقرأهم به أئمتهم ، ولو ساغ لقائل أن يقول إن الحجاج غير ما غير وانكتم له ذلك لساغ لآخر أن يقول إن عبد الملك غيره وإن زياداً غيره وأنكتم لهم ذلك فهذا غاية البطلان والضلال.

على أنه لو قال قائل مثل هذا فى قصيدة (قفا نبك ...) أو فى الموطأ للإمام مالك أو ودع هريرة لكان هذا جاهلا غاية الجهل بالعادات العربية فما بالك بالقرآن الذى حفظه رب الأرض والسموات ورب العجم والعرب .

قال القاضى أبو بكر الباقلانى :

ولو سألنا من يدعى صنيع الحجاج لذلك ما هذه الحروف التى غيرها ؟ فقال هى معروف منها قوله :(هو الذى سيركم) بسكون الياء وفتح الراء فردها الحجاج (يسيركم فى البر والبحر) ومنها فى سورة البقرة (يتسن من غيرها) جعلها (يتسنه) بالهاء ومنها (شريعة ومنهاجا) جعلها (شرعة)

وقد علم كل واحد أن هذه الحروف ليس فيها دليل على إثبات خلافة بنى أمية وإبطال خلافة ولد على والعباس حتى يقال إنه قصد بذلك هذا الوجه ، ولكن القوم لا يفقهون .

الشبهة الثانية من الباب الثالث :

قالت الرافضة : إن أبا بكر وعمر وعثمان والصحابة أسقطوا من المصاحف كثيرا من الآيات والسور المشتملة على فضائل أهل البيت وعلى ولاية على بن أبى طالب وأنه كان لدى على بن أبى طالب مصحف وقيل لدى فاطمة : وساقوا أدلتهم على ذلك بما يأتى .

(١) رووا عن جعفر الصادق أنه قال : ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب وما جمعه وحفظه إلا على والأئمة من بعده وكذا ما رووا عن ابن عمر — فى زعمهم أنه قال :

لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله فقد ذهب منه كثير ولكن ليقل قد أخذت ما ظهر منه .

(٢) قد رووا عنه أنه قال : إن عندنا مصحف فاطمة عليها السلام : قيل وما مصحف فاطمة : قال مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد .

(٣) رووا عن هشام بن سالم عن جعفر الصادق : أن القرآن المنزل كان سبعة عشر ألف آية : وروى محمد بن نصر عن جعفر الصادق أنه قال: كان فى سورة لم يكن إسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم

وروى محمد بن جهم الهلالى وغيره : عنه أيضا : أن قوله : أمة هى أربى من أمة : ليس من كلام الله بل هو محرف وأصله المنزل (أمة هى أزكى من أمتكم) وزعموا أن فى القرآن سورة تسمى سورة الولاية أسقطت بتمامها وأن سورة الأحزاب كانت كالأنعام طولا فأسقطوا منها فضائل أهل البيت وأنهم أسقطوا لفظه (ويلك) من قوله (لا تحزن إن الله معنا)

ولفظة (بعلى ابن أبي طالب) من قوله (وكفى الله المؤمنين القتال) ولفظه (آل محمد) من قوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) .

فالقرآن الذى بأيدى المسلمين الآن فى مشارق الأرض ومغاربها محرف أكثر من التوراة والانجيل فى نظر أولئك البعض من غلاة الشيعة) قاتلهم الله أنى يؤفكون).

ونرد على هذه الشبهة :

بأن هذه كلها أباطيل وهذيان ومفتريات ليس لها أى نصيب من الصحة لأنها لا تستند لأى دليل ولا تستحق أن تذكير ليرد عليها لولا أن بعض غلاة الشيعة وبعض الملحدين : يرددونها من حين لآخر : وربما يخدع بها بعض ضعاف العقيدة: ويكفى فى كونها مفتريات وأباطيل أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا لها دليلا أو ينصبوا عليها برهانا : ولكن ما الحيلة إذا كانت الشقاوة قد كتبت لهؤلاء السفهاء فى الأزل فلا حول ولا قوة إلا بالله من سوء الختم ، على أن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأ من هذا السخف وذاك الإفك ولم يطق أن يكون هذا منسوبا إليهم وهو منهم ، فقد نسب ذلك إلى بعض من الشيعة من غاب عنهم الصواب وضل بهم التفكير .

قال الطبرسى وهو من أكبر رؤساء الشيعة فى كتابه مجمع البيان وهو المرجع عندهم . قال ما نصه (إما الزيادة فى القرآن فمجمع على بطلانها وأما النقصان فهو أشد استحالة) ثم قال إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة . فإن العناية اشتدت والدواعى توفرت على نقله وحراسته . وبلغت إلى حد لم يبلغه شىء فى الوجود . لأن القرآن مفخرة النبوة . ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية وعلماء

المسلمين قد بلغوا فى حمايته الغاية القصوى . حتى عرفوا كل شىء اختلف فيه من تفسيره وأحكامه وإعرابه وقراءاته ورسمه وضبطه وعدد آياته وعدد نقطه وحركاته فكيف يتخيل عاقل بعد تلك العناية الفائقة بالقرآن الكريم أن يحصل فيه نقص أو زيادة مع هذا الضبط الشديد انتهى طبرسى ، مع شىء قليل من التصرف فى العبارة والتغيير فى بعض الألفاظ ، ثم إن التواتر قد حصل والإجماع قد انعقد على أن الموجود بين دفتى المصحف هو كتاب الله عز وجل من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تبديل .

والتواتر هو الطريق الواضح فى طريق العلم الصحيح والإجماع سبيل من سبل الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال المبين ، نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى ومن الكفر بعد الإيمان .

وأما قولهم إنه كان عند على بن أبى طالب مصحف غير هذا المصحف وعند فاطمة كذلك مصحف الخ .

وما ساقوه على ذلك من أدلة مثل قولهم عن جعفر الصادق أنه قال ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب . وما جمعه وحفظه كما أنزل إلا على والأئمة من بعده وأن القرآن كان سبع عشر ألف آية إلى آخر تلك المفتريات والمغالطات والكذب المفضوح .

فنقول ردا على ذلك : نعم إنه كان عند على بن أبى طالب مصحف وعند عائشة مصحف بل كان عند الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم لكن كما يقول الشيخ عبد الفتاح القاضى فى كتابة تاريخ المصحف .

إنه اشتهر فى عهد الصحابة مصاحف أخرى غير المصاحف العثمانية بيد أن هذه المصاحف لم تظفر بما ظفرت به المصاحف العثمانية من إجماع

الصحابة عليها ورضاهم بها ووقوفهم عندما تضمنه من الأوجه والقراءات الصحيحة ولم تحرز عند أهل الأقاليم والأمصار ما أحرزته المصاحف العثمانية من الثقة والقبول ذلك أن هذه المصاحف التى يزعمونها كانت مصاحف فردية خاصة كتبها بعض الصحابة لنفسه ولم يقتصر فى كتابتها على ما توافرت قراءته . وثبت فى العرضة الأخيرة .

بل كتب فيها ما كانت روايته آحاد وما نسخت تلاوته وما لم يكن فى العرضة الأخيرة .

وخلط فيها بين ألفاظ القرآن وما كان شرحالها وبيانا لمغزاها . وهذه المصاحف تختلف عن المصاحف التى نسخها عثمان رضى الله عنه تارة بالزيادة وأخرى بالنقصان ومرة بالتقديم ومرة بالتأخير وهكذا وعلى أى وجه كانت فلا تصح القراءة بما تضمنته هذه المصاحف لمخالفتها ما أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم والمسلمون من بعدهم .

وما تلقته الأمة كلها بالرضا والقبول وإليك نموزجا من تلك المصاحف .

فهناك مصحف عمر بن الخطاب الذى كتب فيه فى سورة الفاتحة (صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين . وفيه فى أول سورة آل عمران (الم الله لا إله إلا هو الحى القيام وفى سورة المدثر . (فى جنات يتساءلون يافلان ما سلكك فى سقر)

وإليك مصحف على بن أبى طالب : الذى كتب فيه فى سورة البقرة (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه وآمن المؤمنون)

ومصحف عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها الذى كتب فيه فى سورة البقرة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر) .

وفى سورة الاحزاب (إن الله وملائكته يصلون على النبى والذين يصلون فى الصفوف الأولى .

ومصحف حفصة أم المؤمنين الذى كتب فيه (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر) .

ومصحف أم سلمة أم المؤمنين وفيه ما فى مصحف حفصة .

ومصحف عبد الله بن الزبير الذى كتب فيه فى سورة البقرة : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج .

وفى سورة المائدة (فيصبح الفساق على ما أسروا فى أنفسهم نادمين وفى آل عمران (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم) .

ومصحف أبى بن كعب الذى كتب فيه فى سورة البقرة (فلا جناح عليه ألا يطوف بهما وفى البقرة كذلك (للذين يقسمون من نسائهم) بدل يؤلون من نسائهم .

وفى سورة النساء (فما استمتعتم به منهم إلى أجل مسمى) يعنى بزيادة إلى أجل مسمى : وفى المائدة (فصيام ثلاثة أيام متتابعات .

ومصحف عبد الله بن عباس الذى كتب فيه فى البقرة (فلا جناح عليه ألا يطوف بهما) وفيها أيضا (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج وفيها كذلك (وأتموا الحج والعمرة للبيت) وفيها أيضا (وإن عزموا السراح) بدل الطلاق وفى الحج (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ولا محدث) بفتح الدال مشددة وفى النصر (إذا جاء فتح الله والنصر . وغير هذا كثير .

وفى مصحف عبد الله بن مسعود : كتب فيه فى سورة البقرة (وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل يقولان ربنا)وكذا فيها (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وكذا وتزودوا وخير الزاد التقوى) وفى آل عمران

« وإن حقيقة تأويله إلا عند الله » وكذا فيها « يا مريم اقنتى لربك واركعى واسجدى فى الساجدين » وفى النساء « إن الله لا يظلم مثقال نملة » وغير ذلك كثير وكثير فى القرآن الكريم ، وكل ذلك كان عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن كما عرفت من قبل أنه عندما جمع عثمان المسلمين على مصحف واحد ، حرق ما عداه من تلك المصاحف الخاصة وكان ذلك بموافقة جميع الصحابة فى عهده وقبولهم لعمله ورضاهم به فليس قول على رضى الله عنه ببعيد عنك وهو الذى تزعم الشيعة أنهم يناصرونه ويتشيعون له بهذه الخرافات فقد صح النقل عنه بتحبيذ جمع القرآن على عهد أبى بكر ثم على عهد عثمان : إذ قال فى جمع أبى بكر ما نصه « أعظم الناس أجراً فى المصاحف أبو بكر »

رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع كتاب الله » ثم قال فى جمع عثمان ما نصه « يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو فى عثمان . وقولكم حراق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله « لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان » وبهذا قطع الامام على ألسنة أولئك المفترين . ورد كيدهم فى نحورهم مخذولين . كيف هؤلاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين بلغوا رسالته إلى الكون كله شرقه وغربه وحملوها على أكتافهم وأدوها كما سمعوا وقد فتح الله بهم الروم والشام وبلاد فارس واليمن وغيرها ولولاهم لما كان الإسلام دولة وسلطنة كما كانت وصارت وقد كانوا مصداق قول الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم آمنا) فكيف لهؤلاء يفترون على أصحاب رسول الله هذه الأكاذيب وينسبون إليهم تلك الأباطيل قاتلهم الله أنى يؤفكون والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى أصحابه

رضى الله عنهم : (لاتسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه) متفق عليه .

وبين عليه السلام فضلهم وشرفهم . حيث قال مامن أحد من أصحابى يموت بأرض إلا بعث قائدا ونورا لهم يوم القيامة .

رواه الترمذى . وقال عليه الصلاة والسلام : إذا رأيتم الذين يسبون أصحابى فقولوا لعنة الله على شركم . رواه الترمذى وقد قال فى أبى بكر رضى الله عنه :

(إن من آمن الناس على فى صحبته وماله أبا بكر) متفق عليه .

وقال فى عمر رضى الله عنه (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه).

رواه الترمذى : وقال صلى الله عليه وسلم فيهما : أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين)

رواه الترمذى ورواه ابن ماجة عن على رضى الله عنه : وقال فى عثمان رضى الله عنه :

(لكل نبى رفيق ورفيق فى الجنه عثمان) .

رواه الترمذى . وعن عبد المطلب بن ربيعة : أن العباس دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبا وأنا عنده : فقال مأغضبك . قال يارسول الله مالنا ولقريش : إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة : وإذا لقونا لقونا بغير ذلك . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمر وجهه ثم قال : أيها الناس من آذى عمى فقد آذانى فإنما عم الرجل صنو أبيه) رواه الترمذى ودعا له ولإبنه : فقال اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لاتغادر ذنبا . اللهم احفظة فى ولده : وعنه أنه سئل عليه السلام : (من أحب الناس إليك قال:عائشة . قلت من الرجال قال:

أبوها) متفق عليه وكذلك وردت أحاديث فى غير هؤلاء من بقية أصحابه رضى الله عنهم كعلى بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وخالد بن الوليد ومحمد بن مسلمة والبراء بن عازب وعبد الله بن عمر وغيرهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين مدحهم الله فى كتابه ومدحهم وأثنى عليهم ودعا لهم بالمغفرة الناطق بالوحى .

الذى لا ينطق عن الهوى فدعا لهم ومدحهم واحدا واحدا وجماعة جماعة ، ويمدحهم ويثنى عليهم كل من سلك مسلكه واتبع سبيله من المؤمنين غير المنافقين وأبناء اليهود والمجوس ممن أكلت قلوبهم البغضاء والشحناء والحسد عليهم لأعمالهم الجبارة فى سبيل الله وسبيل نشر هذا الدين المبارك. وكان هذا هو السبب الحقيقى لحنق الكفرة والملحدين على هؤلاء البررة المجاهدين العاملين بكتاب رب العالمين وسنة رسوله المصطفى الأمين .

وحقدهم على أبى بكر وعمر وعثمان الذين قادوا جيوش الظفر . وجهزوا عساكر النصر وكان سبب احتراق اليهود على المسلمين لأنهم هدموا أساسهم. وقطعوا جذورهم ، واستأصلوهم استئصالا ذريعا تحت راية النبى صلى الله عليه وسلم حين كان أسلافهم من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة يقطنون المدينة . وكذا من بعد النبى الكريم عليه السلام فى زمن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حين نفذ فيهم وصية رسول الله صلى عليه وسلم وهى :

(أخرجوا اليهود من جزيرة العرب)

رواه البخارى وقد طهر عمر جزيرة العرب من نجاستهم ودسائسهم ولم ولم يترك لأحد منهم أن يسكن فى الجزيرة طبقـــا لأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام : ولمـا فتح الله للمسلمين إيران على يد الفـاروق الأعظم ومزق جموعها وكسر شوكتها وهدم نظام الملك فيها نقم أهل إيران على

الفاروق ورفقته وجنوده لما جبلوا على الملوكية وأشربوا حبها : عند ذلك وجد اليهود المزرعة الخصبة لغرس بذور الفتنة وبث سموم التفرقة بين المسلمين فكان من الاتفاقات أن ابنة يزدجرد ملك إيران (شهربانو) زوجت من حسين بن على رضى الله عنهما بعد ماجائت مع الأسارى الإيرانيين : فلما دبر اليهود لأمير المؤمنين وخليفة المسلمين عثمان رضى الله عنه مادبروا وتترسوا لذلك بعلى رضى الله عنه بدون إذن منه ومعرفة : وادعوا الولاية والخلافة لعلى وأولاده ، تعاونهم فى ذلك إيران نقمة على الفاروق ورفقته وأصحاب الرسول الذين فتحوا إيران وعثمان الذى وسع نطاق الفتوحات الإسلامية وأقام إعوجاجهم ونفى بغاتهم فأبدى أهل إيران الإستعداد لمعاونة تلك الطائفة اليهودية والفئة الباغية . وخاصة بعد مارأوا أن الدم الذى يجرى فى عروق على بن الحسين الملقب بزين العابدين وفى أولاده دم إيرانى من قبل أمه (شهربانو) ابنة يزدجرد ملك إيران من سلالة الساسانيين المقدسين عندهم .

لأجل هذا دخل أكثر أهل فارس فى الشيعة لما يجدون فيها من التسليه بالسباب على الصحابة وعمر وعثمان . فاتحى إيران مطفىء نار المجوسية فيها ومن هنا اتفقوا مع اليهودية الماكرة فاتحدوا معهم وسلكوا مسلكهم فى الوقوف ضد الإسلام والمسلمين .

وهاهو المستشرق الإنكليزى الذى سكن إيران مدة طويلة ودرس تاريخها دراسة مستفيضة يقول فى صراحة من أهم أسباب عداوة أهل إيران للخليفة الراشد الثانى (عمر) هو أنه فتح إيران ثم يقول :
إن أهل إيران وجدوا فى أبناء على بن الحسين تسلية وطمأنينة بما كانوا يعرفون من أن أم على بن الحسين هى بنت ملكهم (يزدجرد) .

فرأوا فى أولادها حقوق الملك قد اجتمعب لهم مع حقوق الدين .

ومن هنا نشأ بينهم علاقة سياسية وأن أهل إيران يقدسون ملوكهم لاعتقادهم أنهم ماوجدوا الملك إلا من السماء ومن الله فازدادوا فى التمسك بهم انتهى .

من تاريخ أدبيات إيران : على أن اليهود دائما لايهدأون إلا فى إشعال نار الفتنة وخاصة بين المسلمين فقد دست عقائد جديدة فى الإسلام بواسطة ابنها البار عبدالله بن سبأ لبناء مذهب جديد وإنشاء نحلة جديدة باسم الإسلام وليس للإسلام أى علاقة بها فمن تلك العقائد التى جعلتها أصل الأصول هى عقيدة الولاية والوصاية ولقد وردت النصوص المتضافرة عن الشيعة بأن أول من نادى بها هو ابن السوداء .

هذا اليهودى الماكر مع إنكار الشيعة بعلاقتها معه ومع اليهودية فإنهم لايبنون عقائدهم إلا على أقواله وآرائه فها هى الولاية ماجعلوها أساسا لدينهم إلا كما علمهم اليهود وقرروها لهم .

فيذكر محمد بن يعقوب محدثهم الكبير الذى عرض كتابه على الإمام . وصدقه إمامهم المزعوم الموهوم يذكر هذا عن فضيل عن أبى جعفر عليه السلام فمن تلك الخرافات .

قال بنى الإسلام على خمس (الصلاة - والزكاة - والصوم - والحج - والولاية - ولم ينادى بشىء . مانودى بالولاية يوم الغدير) والغدير هو موضع بقرب المدينة وأماقصته والأحاديث الواردة فيها فموضوعة فارجع إليها إن شئت وقد نقل ذلك من الكافى فى الأصول فى باب دعائم الإسلام فانظر أيها العاقل كيف يختلف القوم مع المسلمين حيث يقول رسول الإسلام بنى الإسلام على خمس أولها شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله الخ الحديث ولكن هؤلاء لايعدون شهادة التوحيد والرسالة شيئاً . ويفضلون الولاية والوصاية على الصلاة والزكاة والصوم والحج كى يجلبوا القوم إلى دين جديد طبقاً للخطة المرسومة لهم وقد صرح الشيعة بأكثر من هذا حيث قالوا عن زرارة عن أبى جعفر عليه السلام .

قال : بنى الإسلام على خمسة أشياء : الصـــلاة والزكاة والصوم والحج والولاية . قال زرارة : فقلت وأى شيء من ذلك أفضل ، فقال : الولاية) إنتهى .

من الكافى فى الأصول ص ١٨ ج ٢ طبع إيران : ثم حذفوا الصوم والحج . فقالوا عن الصادق (جعفر) عليه السلام قال :

إن آثافى الإسلام ثلاثة[١]: الصلاة والزكاة والولاية، لاتصح واحدة منها إلا بصاحبتها ومن ثم تطرقوا إلى حذف الجميع ، وإبقاء الولاية وحدها وليس هذا فحسب . بل روى عن جبه العوفى أنه قال : قال أمير المؤمنين « على » رضى الله عنه : إن الله عرض ولايتى على أهل السموات وعلى أهل الأرض . أقر بها من أقر . وأنكرها من أنكر . أنكرها يونس عليه السلام فحبسه الله فى بطن الحوت حتى أقر بها . إنتهى .

من بصائر الدرجات ص ١٠ ج ٢ طبع إيران . هذا وغير . أفظع وأجرم منه من أباطيل الشيعة وهذيانها الذى إن ماتوا عليه ماتوا على غير الملة السمحاء نعوذ بالله من سوء الخاتمة ، فقل لى بربك من الذى يحرف ويغير ويبدل ويزيد وينقص فى كتاب الله المحفوف بالعناية الربانية ؟ أهؤلاء الحمقى أم أصحاب رسول الله الفضلا ؟ هذا وإن كان قد أطلنا بعض الشىء فى الكلام عن الشيعة إلا أن ظروف الموضوع هى التى جرتنا لذلك فهل بعد هذاريب لمرتاب أو شك لشاك فى أن تلك الفرية ولدتهم اليهودية لأغراضها المسمومة ، وهم ينكرون الانتساب إليها بعد ما يقرون بآرائها ومعتقداتها التى روجت ودست فى الإسلام وماقصدهم من ذلك إلا إبعاد المسلمين عن تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم وروحها روح الإسلام القويم .

---

(١) أى دعائم الاسلام وقواعده .

وتعطيل الشريعة الاسلامية السمحاء ، فقد عطلوها فى أتباعهم فعلا حيث قالوا : إن النجاة ليس مدارها على العمل بالكتاب والسنة . بل مدارها على التبنى والتمسك بأقوال هؤلاء الملاحدة ولو خالفوا فى ذلك صريح الكتاب والسنة فلا يؤاخذون عليها ، فقد قالوا إن شارب الخمر ذكر عند جعفر بن الباقر الإمام المعصوم عندهم .

فقال : وماذلك على أن يغفر الله لمحب على ، وذكر القمى أكثر من هذا . فقال عن أبى عبد الله قال : إذا كان يوم القيامة يدعى محمد صلى الله عليه وسلم وآله فيكسى حلة وردية ثم يدعى بعلى أمير المؤمنين عليه السلام ثم يدعى بالأئمـــة ثم يدعى بالشيعة فيقومون وإمامهم ثم يدعى بفاطمة ونسائها من ذريتها وشيعتها فيدخلون الجنة بغير حساب . إنتهى من تفسير القمى ص ١٢٨ ج ١ . وروى الكشى عن أبى عبد الله : أنه دخل عليه جعفر بن عفان . فقال له : بلغنى أنك تقول الشعر فى الحسين وتجيد . فقال له : نعم جعلنى الله فداك فقال : قل فأنشد . فبكى ومن حوله حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته ، ثم قال ياجعفر بن عفان : (والله لقد شهدك ملائكة الله المقربون ههنا يسمعون قولك فى الحسين ولقد بكوا كما بكينا أو أكثر) .

ولقد أوجب الله تعالى لك يا جعفر ساعتك الجنة بأسرها وغفر الله لك .

فقال « أبو عبد الله » : يا جعفر ألا أزيدك . قال : نعم يا سيدى . قال : مامن أحد قال فى الحسين شعراً فبكى وأبكى إلا أوجب الله له الجنة وغفر له .

فانظر حفظك الله كيف تعطل الشريعة المحمدية البيضاء ؟ وكيف

يلغى أحكامها و أوامرها عند هؤلاء وهذا هو المطلوب لهم والمقصود عندهم ؟ ومن أجل ذلك كونت هذه الفئة وأنشئت تلك الطائفة وكتبهم مليئة بمثل هذه الدسائس وعليها يتكاون وبها يعتقدون .

ولكن الشريعة التى جاء بها محمد الأمين أشرف النبيين وخاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ماتخبرنا إلا بأن النجاة ليس مدارها إلا على العمل الصالح بعد الإيمان الصادق بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر .

على أننا نقول لهؤلاء المفترين على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الخلافة قد إنتهت إلى على كرم الله وجهه بعد أبى بكر وعمر وعثمان .

فإن صح ماتقولون فى أن هؤلاء الثلاثة غيروا وبدلوا ونقصوا وزادوا فى القرآن . فما الذى منع علياً رضى الله عنه وقتئذ أن يجهر بالحق فى القرآن وأن يصحح للناس ما أخطأت فيه أسلافه على هذا الزعم والبهتان الباطل مع أنه الإمام المعصوم وقتئذ فى عقيدة أولئك المبطلين ، ومع أنه كان من سادات حفظة القرآن ومن أشجع خلق الله فى نصرة دين الإسلام ولقد صار الأمر بعده إلى إبنه الحسن رضى الله عنه ، فماذا منعه الآخر من إنتهاز هذه الفرصة كى يظهر حقيقة كتاب الله للأمة ، هذه مزاعم لايقولها إلا مجنون ولا يصدق بها إلا مأفون .

وأما قولهم : إن القرآن المنزل كان سبعة عشر ألف آية فهذا قول باطل لأنهم كانوا يعدون القرآن بشرحه وبعض تفسيره ومعانى كلماته اللغوية ، وكل ذلك كان قبل النسخ وقبل العرضة الأخيرة ومانقل بطريق الآحاد ، وقد سبق أن بينا أن القرآن الصحيح الذى هو كلام رب العالمين هو المنقول إلينا نقلا متواتراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

عن جبريل عن رب العالمين رب العزة عزوجل فما من القرآن كلمة ولا حرف إلا وعليه نص فإن نصوص القرآن الصحيحة قد علمها وحفظها جمع يؤمن تواطئهم على الكذب فى كل طبقة من طبقات الأمة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليـــوم وإلى أن تقوم الساعة لحرام عندنا أن يقرأ أحد بما أداه إليه إجتهاده إذا لم تأت به رواية متواترة ، وهذا الذى حرم على جميع القراء دخول القياس فى القراءة . قال الإمام الشاطبى رحمه الله وماللقياس فى القراءة مدخل وقد سبق مافيه الكفاية من رد هذه الفقرة من تلك الشبهة حتى من كلام رؤساء الشيعة أنفسهم فها هو الطبرسى وكلامه فى مجمع البيان .

يقول : (أما الزيادة فى القرآن فمجمع على بطلانها وأما النقصان فهو أشد إستحالة إلى أن قال : إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان الخ .

وقد تقدم الكلام على ذلك فلاداعى لإعادته .

وأما ماأوردوه من العبارة المزعومة عن محمد بن جهم الهلالى وغيره مما نسبوه لكلام الله فعلى فرض صحته فإن ذلك كله من الأشياء التى نسخت قبل قبل العرضة الأخيرة وقد وفينا الكلام عليها من قبل وهى عبارات كثيرة جداً لاتتسع لها هذه العجالة وقد أطال الكلام عليها الباقلانى (فى كتابه الانتصار لنقل القرآن) فارجع إليه إن شئت لأن كلامهم ذلك فيه هذيان لايتعلق به كبير غرض مادمنا قد بينا الحكم فى ذلك من قبل وذكرنا أمثلة منه عند كلامهم على المصاحف الخاصة التى أحرقت بعد نسخ مصاحف عثمان المعتمدة والله يرشدك إلى الصواب .

وأما قولهم إن عندنا مصحف فاطمة فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ما فى قرآنكم منه حرف واحد وقرآنكم هذا لايحتوى جميع القرآن

الذى نطق به محمد صلى الله عليه وسلم . فنقول رداً على ذلك :

أما قولكم : إن القرآن الحالى لا يحتوى على آيات القرآن التى نطق محمد مستدلين بتلك الأدلة الواهية . فهذا إستنتاج معكوس وفهم منكوس. لأن كتابة القرآن وحفظه فى آن واحد فى صدور آلاف مؤلفة من عهد الصحابة رضوان الله عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أدعى إلى بقاء هذا القرآن وأدل على أنه لم تفلت منه كلمة ولا حرف . كيف وأحد الأمرين من الكتابة والحفظ كاف فى هذه الثقة . فما بالك إذا كان القرآن كله كان مكتوباً بخطوط أشخاص كثيرين ومحفوظاً فى صدور جماعات كثيرين ، فقولهم هذا قول باطل وهو كلام مجرد من السند والحجة لا دليل عليه وما هو إلا إفك مفترى .

الشبهة الثالثة والأخيرة من هذا الباب : وهى إنكار الرافضة للأحرف السبعة : وقولهم إن حديث الأحرف السبعة موضوع ومما يدل على وضعه اضطراب متنه .

وأنكروا كذلك تواتر القراءات بل أنكروا القراءات جملة وتفصيلا وزعموا أنه قد دخل فيها وهم وخلط وزيادة ونقصان وأن رواتها من القراء ليسوا من أهل العدالة والضبط .

وقولهم : إن زيد بن ثابت كان يكتب فى المصاحف بخبر الآحاد . فقد أخبر هو أنه كتب آخر التوبة بخبر أبى خزيمة الأنصارى : وآية الأحزاب (من المؤمنين رجال صدقوا) بخبر خزيمة بن ثابت ، وأخذ المستشرقون عنهم هذه الشبهة حتى قالوا إن الصحابة عندما كتبوا المصاحف كانوا لا يتقنون الخط والكتابة فحدث خلل كثير فى كتابتهم وكانت الغفلة والنسيان والوهم تلحق الكتاب أثناء الكتابة ، ومن الخلل الذى حصل

فيها أنهم لم يبينوا الحروف بالنقط والحركات وخالفوا قواعد الكتابة في مواضع كثيرة فأدى ذلك إلى أن يبذل علماء الإسلام من التابعين ومن بعدهم جهدهم الشخصي في معرفة المكتوب وتمييزه فوقع الاختلاف بينهم والتناقض . وهذا هو سبب نشأة القراءات .

ونقول رداً على هذه الشبهة :

إن إنكار الرافضة أو غيرهم للأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم تيسيراً على الأمة الإسلامية ورحمة بها إذ كانت قبائل العرب مختلفة اللغات متباينة اللهجات هو إنكار خادع . وتضليل ماكر لأنه إنكار لم تساعده حجة واضحة ولم يقم عليه دليل صريح ولا شبه صريح وإنما كلها أدلة باطلة أوردوها على سبيل المغالطة وما يقصدون بذلك إلا التشويش على القرآن وعلى دين الإسلام كتاب المسلمين ، أما القراءات السبع التي نزل عليها القرآن الكريم ونص عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الذي بلغ حد التواتر عند الإمام أبي عبيد بن سلام وقد روى هذا الحديث عن واحد وعشرين صحابياً (وهو حديث نزول القرآن على سبعة أحرف) .

فقد جاء النقل الصحيح لهذا الحديث من طرق كثيرة مختلفة عن جمع كبير من الصحابة منهم :

عمر وعثمان وابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة وأبو بكر وأبو جهم وأبو سعيد الخدري وابن طلحة الأنصاري وأبي بن كعب وزيد بن أرقم . سمرة بن جندب .وسلمان بن صرد . وعبد الرحمن بن عوف . وعمرو بن أبي وسلمة . وعمرو ابن العاص . ومعاذ بن جبل . وهشام بن حكيم . وأنس بن مالك وحذيفة . وأم أيوب امرأة أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنهم أجمعين. وروى الحافظ وأبو يعلى في مسنده الكبير أن عثمان رضى الله عنه قال

يوماً وهو على المنبر (اذكر الله رجلا سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف) لما قام . فقاموا حتى لم يحصوا . فشهدوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف) فقال عثمان رضى الله عنه (وأنا أشهد معهم) وكأن هذه الجموع التى يؤمن تواطؤها على الكذب هى التى جعلت الإمام أبا عبيد بن سلام يقول بتواتر هذا الحديث .

غير أن شرط التواتر هو توافر الجمع الذى يؤمن تواطؤهم على الكذب فى كل طبقة من طبقات الرواية وهذا الشرط إذا كان موفوراً فى طبقة الصحابة لهذا الحديث لكن نحن لا ندرى وفرته فى الطبقات المتأخرة ، وإليك جملة من تلك الأحاديث فى هذا الشأن نوردها لك استدلالا من ناحية وبياناً للمعنى من ناحية أخرى .

فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال (قال رسول الله عليه وسلم (أقرأنى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف) .

وروى البخارى ومسلم أيضا (واللفظ للبخارى) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول (سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة .

لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره فى الصلاة . فانتظرته حتى سلم . ثم لببته بردائه أو بردائى . فقلت من أقرأك هذه السورة .

قال أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت له كذبت . فوالله

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرؤها فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله إنى سمعت هـذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . وأنت أقرأتنى سورة الفرقان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر اقرأ يا هشام . فقرأ هذه القراءة التى سمعته يقرؤها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه » .

وروى مسلم بسنده : عن أبى بن كعب قال (كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه .

ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه . فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه .

ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه . فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأا . فحسن النبى صلى الله عليه وسلم شأنهما فسقط فى نفس من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقد غشينى ضرب فى صدرى . ففضت عرقا . وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقا أى خوفا فقال لى يا أبى . أرسل إلى أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثانية : اقرأه على حرفين فرددت إليه . أن هون على أمتى . فرد إلى الثانية .

اقرأه على سبعة أحرف . ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألنيها . فقلت (اللهم اغفر لأمتى اللهم اغفر لأمتى) .

وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم صلى الله عليه

وسلم : واعلم أن ما سقط فى نفس أبى بن كعب وقتئذ من هذا الاختلاف فى القراءة لا ينافى أنه من عند الله لكنه كان خاطرا من الخواطر السريعة التى لا تنال من نفس صاحبها منالا ولا تفتنها عن عقيدة . ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لا يؤاخذهم على هواجس النفوس وخلجات الضمائر ولكن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم حين يفتح الإنسان للشبهة صدره ويوجه إليها اختياره وكسبه ثم يعقد عليها فؤاده وقلبه . ومن هنا نعلم أن ما خطر لسيدنا أبى بن كعب رضى الله عنه لا يمس مقامه ولا يصادم إيمانه ما دام قد دفعه بإرشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا كما هو فى الحديث الشريف : فإنه لا يستطيع أى إنسان أن يحمى نفسه من خواطر السوء الهوجاء ورياح الهواجس الشنعاء . إنما الواجب على المؤمن أن يحارب تلك الخواطر الرديئة بأسلحة العلم وتعاليم الشريعة ولا يستسلم لها ولا يسترسل معها : أضف إلى هذا أن خصومة أبى بن كعب فى أمر اختلاف القراءة على هذا النحو إنما كانت قبل أن يعلم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف فهو وقتئذ كان معذورا بدليل أنه لما علم بذلك اطمأنت إليه نفسه وعمل بما علم وكان مرجعا مهما من مراجع القرآن على اختلاف رواياته . وكان من رواة هذا العلم للناس كما تلاحظه فى الحديث الآتى وهو ما رواه مسلم بسنده عن أبى بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان عند أضاة بنى غفار قال (فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف : فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وأن أمتى لا تطيق ذلك .

ثم أتاه الثانية فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته . وأن أمتى لا تطيق ذلك ثم جاءه الثالثة فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك على ثلاثة أحرف . فقال أسأل الله معافاته ومغفرة . وإن أمتى لا تطيق ذلك ثم جاءه الرابعة فقال إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا

عليه فقد أصابوا . أهـ . (وأضاءة بنى غفار بفتح الهمزة فى أضاءة وكسر الغين فى غفار: هى مستنقع الماء كالغدير. وكان بموضع من المدينة المنورة ينسب إلى بنى غفار لأنهم نزلوا عنده إنتهى . وغير ذلك كثير من الأحاديث الواردة فى هذا المعنى أوصلها صاحب المناهل . إلى عشرة أحاديث مروية عن الترمذى والإمام أحمد بسنده والحاكم وابن حبان بسندهما والبخارى عن ابن مسعود .

والطبرى والطبرانى عن زيد بن أرقم وأخرجه بن جرير الطبرى عن أبى هريرة رضى الله عنهم أجمعين فكيف بعد ذكر هذه الأحاديث التى بلغت حد التواتر والمروية من تلك الطرق الصحيحة عن أصحاب رسول الله الأمناء على رسالة نبينا وعلى وحى السماء أن يقال: إن حديث الأحرف السبعة موضوع مستدلين على كذبهم وإفترائهم بإختلاف ألفاظ الحديث الناتج من تعدد طرقه ورواياته والأحوال التى ذكرت فى سبب إيراد هذا الحديث كما هو الشأن فى الأمر الجلل الذى يعنى بالسؤال عنه .

أما عن إنكارهم للقراءات جملة وتفصيلا وزعمهم أن رواتها ليسوا من أهل العدالة والضبط وأن زيد بن ثابت كان يكتب فى المصاحف بخبر الآحاد كما أخبر أنه كتب آخر التوبة بخبر أبى خزيمة الأنصارى وآية الأحزاب بخبر خزيمة بن ثابت إلى آخر ماقالوه من أن الغفلة والنسيان كانت تلحق كتاب المصاحف ومثلوا للخلل فى الكتابة أنهم لم يبينوا الحروف بالنقط والحركات وقد تنبه لهذا التابعون من بعدهم وبمجهودهم الشخصى ، فوقع بينهم الخلاف وأدى إلى نشأة القراءات .

نقول رداً على ذلك :

إعلم وفقك الله أنه بعد أن أوردنا لك عدداً من الأحاديث فى هذا الشأن وبينا مدى صحتها وما بلغ فيها حد التواتر عند بعض الأئمة ، نبين لك السبب فى ورود القرآن على سبعة أحرف : يقول المحقق بن الجزرى: (وأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها والتهوين عليها

شرفاً لها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق .

حيث أتاه جبريل فقال (إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف . فقال صلى الله عليه وسلم أسأل الله معافاته ومعونته فإن أمتى لاتطيق ذلك . ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف . ثم قال وكما ثبت أن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف . فإن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد . وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين والنبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى جميع الخلق أسودهم وأحمرهم عربيهم وعجميهم وكان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ألسنتهم مختلفة ولغاتهم شتى ومتباينة ويعسر على أحدهم الإنتقال من لغة إلى لغة غيرها أو من حرف إلى حرف آخر بل قد يكون بعضهم لايقدر على ذلك حتى ولو بالتعليم والعلاج لاسيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ منهم كتابا كما أشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم فى الحديث ، (فإن أمتى لاتطيق ذلك) فلو كلفوا العدول عن لغتهم والإنتقال عن لسانهم لكان فى ذلك التكليف بما لا يستطاع . انتهى .

على أن العلماء تعللوا لذلك وقالوا إن تنوع هذه القراءات يقوم مقام تعدد الآيات فى استخلاص الأحكام الشرعية من تلك القراءات وذلك ضرب من ضروب البلاغة فى القرآن يبتدىء من جمال الإيجاز وينتهى بكمال الإعجاز ثم إنه فى تنوع تلك القراءات الكثيرة من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله وعلى صدق من جاء به وهو الرسول صلى الله عليه وسلم فإن هذه الإختلافات فى القراءة على كثرتها لاتؤدى إلى تناقض فى المقروء ولا تضاد ولا تهافت ولا تخاذل بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض . على نمط واحد فى علو الأسلوب والتعبير والهدف الواحد فى سمو الهداية والتعليم وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف فالقرآن يعجز إذا قرىء بهذه القراءة كما يعجز أيضا إذا قرىء بهذه القراءة الثانية والثالثة وهلما جرا .

فالقراءات المتواترة كلها على اختلافها وتنوعها هى كلام الله لا مدخل لبشر فيها بل كلها نازلة من عند الله تعالى مأخوذة بالتلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على ذلك أن الأحاديث السابقة تفيد أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يرجعون فيما يقرءون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يأخذون عنه ويتلقون منه كل حرف يقرءون عليه أنظر قوله صلى الله عليه وسلم فى قراءة كل من المختلفين « هكذا أنزلت » ، وقول المخالف لصاحبه « أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أنه لو صح لأحد أن يغير شيئاً من القرآن بمرادفه أو غير مرادفه لبطلت قرآنية القرآن وأنه كلام الله ولذهب الإعجاز ولما تحقق قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

وأما قولهم : إن رواة هذه القراءات ليسوا من أهل العدالة والضبط فنقول لهم : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) ثم نقول لهؤلاء الملحدين ماالذى تعرفونه أنتم عن العدالة والضبط حتى تتكلموا فى حق أهل العدالة والضبط ومن شهدت لهم السماء بذلك وشهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بها . فإذا كنتم قبل ذلك طعنتم فى أجل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبى بكر وعمر وعثمان وقلتم : إنهم زادوا أو نقصوا فى كتاب الله وغيروا وبدلوا فكيف لا تطعنون فى زيد بن ثابت وأبى بن كعب وغيره من قراء الصحابة أو قراء التابعين أو تابع التابعين بل لابد أن يكون الطعن أشد وأكثر من باب أولى ، فهذا الهذيان والتخريف لايستحق الرد عليه ولا الالتفات إليه ، ولكن كما يقال : (إذا لم تستح فاصنع ماشئت) فماذا بعد الحق إلا الضلال .

على أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا كما عرفت من قبل فى غاية التحمس للدفاع عن القرآن الكريم وكانوا حريصين كل

الحرص فى المحافظة على التنزيل متيقظين لكل من يريد أن يحدث فيه حدثاً ولو كان عن طريق الأداء واختلاف اللهجات مبالغين فى هذه اليقظة حتى أنهم كانوا ليأخذون فى هذا الباب بالظنة يناكرون عن القرآن بكل عناية وهمة ، وحسبك استدلالا على ذلك ما فعله عمر بن الخطاب مع صاحبه هشام بن حكيم . على حين أن هشاماً كان فى واقع الأمر على صواب فيما يقرأ . وأنه قال لعمر تسويغاً اقراءته : اقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن عمر لم يقتنع ولببه وساقه إلى المحاكمة ولم يتركه حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لهشام بأنه أصاب وقال مثل ذلك فيما فعل أبى بن كعب بصاحبه وهكذا .

على أن المراد بالأحرف فى الأحاديث التى سقناها هو وجوه فى الألفاظ وحدها لا محالة بدليل أن الخلاف الذى صورته لنا الروايات المذكورة كان دائراً حول قراءة الألفاظ لا تفسيراً للمعانى كقول عمر ابن الخطاب فيما سبق إذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم حكم الرسول أن يقرأ كل منهما وقوله صلى الله عليه وسلم « هكذا أنزلت) فلا ريب أن القراءات إنما هى أداء الألفاظ لا شرحاً للمعانى .

ونريد أن نبين لك بإيجاز معنى تلك الوجوه السبعة المأخوذة من قوله ﷺ «على سبعة أحرف» فإن الإمام ابن الجزرى قد أوصل معنى هذه الجملة إلى أربعين قولا .

ولكن نحن نقول ونختار من تلك الأقوال والمذاهب الرأى الراجح والقائل إن الوجوه السبعة التى لا تخرج عنها القراءات مهما كثرت وتنوعت فى الكلمة الواحدة هى أن الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف فى الاختلاف وهى واردة على النحو الآتى :

١ — اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث مثل (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) قرىء بالجمع والإفراد فى لفظ (لأماناتهم) وكذا قوله (لا يقبل منها شفاعة ولا تقبل منها شفاعة .

٢ — اختلاف فى تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر مثل (ربنا باعد بين أسفارنا) قرىء باعد فعل أمر أو فعل دعاء وقرىء (ربنا بعد) بنصب (ربنا) وتضعيف العين فى (بعد) وقرىء (ربنا باعد) برفع ربنا وباعد بالألف وفتح الدال على أنه فعل ماض .

٣ — اختلاف وجوه الإعراب مثل (ذو العرش المجيد) قرىء برفع لفظ المجيد على أنه نعت لكلمة (ذو) وقرىء بجر المجيد على أنه نعت لكلمة العرش ومثلها قوله عذاب من رجز أليم قرىء برفع أليم وجرها .

٤ — اختلاف بالنقص والزيادة مثل قوله تعالى (إن الله هو الغنى الحميد) قرىء بزيادة لفظ هو وقرىء بحذفها .

٥ — اختلاف بالتقديم والتأخير مثل قوله تعالى (فيقتلون ويقتلون) قرىء بتقديم المبنى للفاعل مرة وقرىء بتقديم المبنى للمفعول مرة أخرى .

٦ — الاختلاف بالإبدال فى الحروف مثل قـــوله (إثم كبير وكثير) وننشرها أو ننشرها .

٧— اختلاف اللغات أى اللهجات كالفتح والأمالة والترقيق والتفخيم والتغليظ وتسهيل الهمزة وتحقيقها والمراد بالتسهيل مطلق التغييرين أو الإبدال أو الإدغام غير أن هذا النوع الاعتماد فيه على المشافهة والنقل فلم يسمح فيه بالتمثيل فالفتح والإمالة يمكن أن يقال فى مثل موسى وعيسى ويحيى تقرأ هذه

الأسماء بالفتح والإمالة صغرى أو كبرى ، وفى هذا القدر كفاية فى معنى الأحرف السبعة وإن أردت الاستزادة فارجع إلى النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى فهو المرجع فى هذا الفن والله يرشدك .

أما قولهم إن زيد بن ثابت كان يكتب بخبر الآحاد مثل آخر التوبة وآية الأحزاب (من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه) .

فنقول رداً على ذلك : إن كلام زيد بن ثابت رضى الله عنه : وهو أنى وجدت آخر التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها إلا معه هـذا الكلام لا يبطل التواتر المشروط فى نقل القرآن ، وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة .

لم تثبت قرآنيتهما بقول أبى خزيمة وحده بل تثبت بأخبار كثيرة غامرة من الصحابة عن حفظهم فى صدورهم وإن لم يكونوا كتبوه فى أوراقهم .

ومعنى قول زيد (حتى وجدت من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره) .

أى لم أجدهما مكتوبتين عند أحد إلا عند أبى خزيمة فالذى انفرد به أبو خزيمة هو وجودهما مكتوبتين لا بحفظهما وإلا فكانتا محفوظتين عند كثير من الصحابة . وليست الكتابة شرطاً فى المتواتر بل المشروط فيه أن يرويه جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ولو لم يكتبه واحد منهم فكتابة أبى خزيمة الأنصارى كانت توثقاً واحتياطاً فوق ما يطلبه التواتر ويقتضيه فكيف يقدح فى التواتر انفراده بها أى بالكتابة .

ويقال مثل ذلك فيما روى عن زيد فى آية سورة الأحزاب (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) .

فإن معناه أن زيداً لم يجدها مكتوبة عند أحد إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصارى . ويدل على أن هذا هو المعنى الذى أراده زيد بعبارته تلك وهى قوله : (فقدت آية من سورة الأحزاب الخ) فإن تعبيره بلفظ (فقدت) يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية وأنها كانت معروفة له ، غير أنه فقد مكتوبها فلم يجده إلا مع خزيمة . وإلا فمن أين له أنه عرف أنه فقد آية إلا إذا كانت محفوظة له قبل ذلك .

على أن كلام زيد بن ثابت فيما مضى من ختام سورة التوبة وآية الأحزاب . لا يدل على عدم تواترهما . حتى على فرض أنه يريد إنفراد أبى خزيمة بذكرهما من حفظهما غاية مايدل عليه كلامه أنهما إنفرد بذكرهما إبتداء ، ثم تذكر الصحابة ماذكراه وكان هؤلاء الصحابة جمعاً يؤمن تواطؤهم على الكذب فدونت تلك الآيات فى الصحف ثم فى المصاحف بعد قيام هذا التواتر فيها ، على أنى أذكر تعليلا لطيفا لهذه الحادثة وينسب هذا التعليل للإمام القرطبى رضى الله عنه يقول : ما معناه لعدم تذكرى النص بالضبط ماذا قال ؟

قال : حينما إعترض البعض على تسجيل زيد بن ثابت لهذه الآيات مع مخالفتها للدستور الذى إعتمده زيد عند جمعه للقرآن فى عهد أبى بكر وهو أنه لايكتب آية إلا بعد أن يشهد عليها إثنان أنها كتبت فى عهد رسول الله وبين يديه وهذه الآيات لم يشهد عليها إلاواحد فقط فعلى آخر التوبة شهد أبو خزيمة الأنصارى وعلى آية الأحزاب شهد خزيمة بن ثابت . يقول القرطبى : إن زيداً أخذ الشاهد الثانى فى آخر التوبة من الآيات نفسها .

أى من صدق مدلول الألفاظ وصحة معانيها ومطابقتها للواقع من الأوصاف التى وردت فيها وإنطبقت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلك الأوصاف دلت دلالة حقيقة على أنها قرآن .

وفى آية الأحزاب من أن شهادة خزيمة بن ثابت بشهادة إثنين كما أخبر بذلك المعصوم صلى الله عليه وسلم إنتهى ، من تفسير القرطبى ، مع شىء من التصرف فى العبارة .

وأما قولهم : إنه قد حدث خلل كثير فى كتابتهم للقرآن لعدم إتقانهم الكتابة ، فمن الخلل أنهم لم يبينوا الحروف بالنقط والحركات وخالفوا قواعد الكتابة فى مواضع كثيرة .. الخ .

ونقول رداً على ذلك :

إن أقوالهم فى هذه التهم وفى تلك الشبهات يشبه بعضه بعضا فى الكذب والافتراء فنهاياتهم التى ختموا بها شبهاتهم أقبح وأسخف من بداياتهم ، لأنهم رتبوا كل ماقالوه على تلك الأكاذيب والمهاترات ثم زادوا فيها إتهاما جديداً مجرداً من السند والحجة أيضا وهو أنه حدث فى آيات القرآن كثير من الخلل والإختلافات المدهشه ولا يعلم نص القرآن الصحيح أحد ، وهكذا كلما خرجوا من إتهام دخلوا فى إتهام آخر واحتجوا بكذب على كذب ، وهانت عليهم كرامتهم وعقولهم فقالوا ماشاء لهم من الهوى والتعصب حقداً على دين الإسلام والمسلمين وحسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق) وكل عاقل خبير بأن القرآن الحالى وصل إلينا محفوظا من كل عبث كما نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم وكما خطه الله تعالى بقلمه فى لوحه المحفوظ (وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

نعم إن الصحابة كانوا لايتقنون القراءة ولا يحذقون الخط والكتابة اللهم إلا نزر يسير لايصاغ بهم حكم على المجموع ويرجع هذا فيهم إلى غلبة البداوة عليهم وبعدهم عن أسباب المدنية والحضارة وعدم إتصالهم

اتصالا وثيقا بالأمتين المتحضرتين فى العالم وقتئذ أمة الفرس فى الشرق وأمة الروم فى الغرب ومعلوم أن الكتابة والقراءة وانمحاء الأمية فى أى بلد مرهون بخروجها من عهد البساطة إلى عهد المدنية والحضارة فهذه الأمية وتلك البساطة قد جعلت الرجل منهم لا يعول إلا على حافظته وذاكرته فيما يهمه حفظه وذكره ومن هنا كان تعويل الصحابة رضوان الله عليهم على حوافظهم يقدحونها فى الإحاطة بكتاب الله عز وجل لأن الحفظ هو السبيل الوحيد إلى إحاطتهم به ولو كانت الكتابة شائعة فيهم حينذاك لاعتمدوا على النقش فى السطور بدلا من الحفظ فى الصدور فالرسول صلى الله عليه وسلم قد عمل على كتابة القرآن كله وكان له كتاب يكتبون الوحى وكان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم كذلك غير أن هؤلاء وهؤلاء كانوا فئة قليلة بجانب الجم الغفير من سواد الأمة الكثير ولعلك لم تنسى أن كتابة القرآن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان الغرض منها زيادة التوثق والإحتياط للقرآن بتقييده وتسجيله بالنقش فوق تقييده وتسجيله بالحفظ دون حديث رسول الله وذلك خوفا من خلطه بالقرآن) .

لذلك قال فى الحديث : الذى رواه مسلم مامعناه (لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن ومن كتب عنى شيئا غير القرآن فليمحه) .

ثم إن الصحابة كانوا أمة يضرب بها المثل فى الذكاء وقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وسيلان الذهن وحدة الخاطر حتى لقد كان الرجل منهم ربما يحفظ مايسمعه لأول مرة .

مهما كثر وطال وربما كان من لغة غير لغته ولسان سوى لسانه ، وحسبك أن تعرف أن رؤسهم كانت دواوين شعرهم وأن صدورهم كانت سجل أنسابهم .

وأن قلوبهم كانت كتاب وقائعهم وأيامهم . كل ذلك وتلك كانت

خصائص كامنة فيهم وفى سائر الأمة العربية من قبل الإسلام ثم جاء الإسلام فأرهف فيهم هذه القوى وتلك المواهب وزادهم من المزايا والخصائص بما أفاد طبعهم من صقل ونفوسهم من طهر .

وعقولهم من سمو . خصوصا إذا كانوا يلتفون حول أعظم رسول ويستمعون لأصدق حديث وهو كتاب الله تبارك وتعالى فهنيئا لهم ولمن سار على طريقتهم وسلك مسلكهم .

أما قولهم إن كتاب الصحف والمصاحف من الصحابة لم يبينوا الحروف بالنقط والحركات أى الشكل الخ . . . .

فنقول ردا على ذلك :

إن القرآن الكريم نزل من غير نقط ولا شكل ولم يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم بنقط ولا بشكل فكتبت الصحف والمصاحف مجردة من ذلك لتكون محتملة لما تواترت قرآنيته من هذه الأحرف السبعة وليكون رسمه محتملا لها وظلت تلك المصاحف على حالتها تلك حقبة من الزمن حتى كثرت الفتوحات الإسلامية واختلط اللسان الأعجمى باللسان العربى وفشا اللحن على الألسنة وكان هؤلاء الأعاجم يعسر عليهم التمييز بين كلمات القرآن وحروفه لأنها كما عرفت غير منقوطة ولا مشكولة فخشى أمراء المؤمنين وولاتهم أن يفضى ذلك إلى اللحن فى كتاب الله تعالى وتحريف كلمه عن مواضعها فعملوا على تلافى ذلك وإزالة أسبابه وأحدثوا من الوسائل مايكفل لصيانة الكتاب العزيز من اللحن .

وحفظه من التحريف بوضع هاتين الوسيلتين من نقط الإعجام الذى يفرق به بين الباء والتاء والعين والغين ونقط الإعراب الذى هو الشكل من فتح وضم وكسر وسكون . وعلى كل فلم يكن فى عهد كتاب

الوحى نقط ولاشكل حتى يقال : إنهم لم يبينوا الحروف بعضها من بعض بالنقط والشكل وقد قلنا : أنها كانت كذلك لتحتمل الكلمات القرآنية معنى الأحرف السبعه التى نزل عليها القرآن .

وأما قولهم : إنهم خالفوا قواعد الكتابة فى مواضع كثيرة فى القرآن الخ .

فنقول رداً على ذلك : إن كتاب المصاحف لم يخالفوا قواعد الكتابة ولكن كما قال فريق من العلماء إن هذا الرسم توقيفى من رسول الله ﷺ وهو مذهب الجمهور واستدلوا عليه بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان له كتاب يكتبون الوحى وقد كتبوا القرآن فعلا بهذا الرسم وأقرهم الرسول صلى الله عليه وسلم على كتابتهم .

قال ابن فارس إن الخط توقيفى : لقوله تعالى (علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) وقوله (ن والقلم وما يسطرون) وأن هذه الحروف داخلة فى (وعلم آدم الأسماء) انتهى .

على الكتبة لم يحدثوا فيه تغييراً ولا تبديلا . بل ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يضع الدستور لكتاب الوحى فى رسم القرآن وكتابته .

ومن ذلك قوله لمعاوية وهو من كتبة الوحى « ألق الدواة وحرف القلم وانصب الباء وفرق السين . ولا تعور الميم . وحسن الله . ومد الرحمن وجود الرحيم وضع قلمك على أذنك اليسرى . فإنه أذكر لك » فإن قيل كيف يعلمهم الكتابة ويضع لهم هذا الدستور وقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فنقول إنه كان صلى الله عليه وسلم أمياً فى بدء الرسالة لتكون معجزة له صلى الله عليه وسلم لكن قيل إنه لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن علمه الله كل شىء وأطلعه على ما كان وما لم يكن .

ثم جاء بعد ذلك أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم فى الصحف . ثم حذا حذوه عثمان بن عفان فى خلافاته فاستنسخ تلك المصاحف على هذا النحو .

ويقول البيهقى فى شعب الإيمان : من كتب مصحفاً ينبغى عليه أن يحافظ على الهجاء الذى كتبت به تلك المصاحف . ولم يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئاً فإنهم كانوا أكثر علما . وأصدق قلباً ولساناً . وأعظم أمانة منا . فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم منا نحن المسلمين فضلا عن هؤلاء المغرضين المعطلين من الكفرة والملحدين .

فالنقط والشكل الذى يشيرون إليه هو من عمل أبى الأسود الدؤلى وسبب استنباطه له أن زياد بن أبى سفيان أمير البصرة فى أيام معاوية كان له ابن اسمه عبيد الله وكان يلحن فى قراءته فقال زياد لأبى الأسود إن لسان العرب دخله الفساد فلو وضعت شيئاً يصلح الناس به كلامهم ويعربون به القرآن فامتنع أبو الأسود فأمر زياد رجلا يجلس فى طريق أبى الأسود فإذا مر به قرأ شيئاً من القرآن وتعمد اللحن فقرأ الرجل عند مرور أبى الأسود آية «إن الله برىء من المشركين ورسوله» بخفض اللام من رسوله . فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال معاذ الله أن يتبرأ الله من رسوله . فرجع من فوره إلى زياد وقال له قد أجبتك إلى ما سألت فاختار رجلا عاقلا فطناً وقال له خذ المصحف وصباغا يخالف لون مداد المصحف فإذا فتحت شفتى فانقط فوق الحرف نقطة وإذا ضممتهما فانقط أمامه نقطة وإذا كسرتهما فانقط تحته نقطة فإذا اتبعته بغنة يعنى تنويناً فانقط نقطتين وهذا مايسمى بنقط الإعراب أى الشكل .

وأما نقط الإعجام الذى وضع لبيان الحروف وتمييز بعضها من بعض فكان على يد العالمين الجليلين : يحى بن يعمر ونصر بن عاصم بأمر الحجاج ابن يوسف الثقفى فى عهد عبد الملك بن مروان وسببه نفس السبب فى نقط الإعراب .

وأما قولهم فقام من بعدهم من التابعين علماء وضعوا هذا النقط وذاك الشكل ومن ذلك نشأة القراءات .

فنقول رداً على ذلك قد سبق أن بينا معنى نزول القرآن على سبعة أحرف وتكلمنا قريباً على النقط والشكل والسبب فى وضعهما وتعرضنا من قبل لنشأة القراءات فى الكلام على نزول القرآن على سبعة أحرف وبسطنا الكلام عليها هناك فلا داعى لإعادته وارجع إليه إن شئت والله يرشدك هذا ما وفقنا الله إليه من الرد على هذه الشبهات التى وردت إلينا وعندما نجد شبهة بعد ذلك فسنرد عليها إنشاء الله تعالى وبحمد الله تم وأسأل الله لنفعه أن يعم والله تعالى أعلى وأعلم .

الخاتمـــة

أحمد الله سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه ، وأستغفره ، وأثنى عليه الثناء كله أن وفقنى لكتابة هذه الرسالة ، التى كلفت بها من قبل الجامعة الإسلامية وأسأله التوبة النصوح من كل ذنب وزلل ومن كل هفوة وخطل واستمنحه التوفيق والقبول لى ولكل من قرأ تلك الرسالة ودعا لصاحبها والمسلمين بالمغفرة فإنى وإن كنت قد سردت بعض الشبهات ورددت عليها إلا أن هناك شبهات أخرى لم يتسع لها المجال فى هذه الطبعة ولكن إن شاء الله تعالى سأوردها وأرد عليها فى طبعة أخرى .

وأرجو من كل من يقرؤها أن يزودنى بملاحظاته واستدراكاته فإن الدين النصيحة والمؤمنون بخير ما تناصحوا فلا أزعم لنفس أنى وفيت ولكن قصارى جهدى أديت والحمد لله فى البدء والختام .

(سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد أفضل النبيين وسيد المرسلين وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين والتابعين وتابع التابعين ولكل من له حق علينا والمسلمين أجمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

« تقريظ »

لصاحب الفضيلة الشيخ : محمد حافظ الدسوقى أستاذ اللغة العربية
بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

الأستاذ المفضال :

الشيخ : محمد الصادق قمحاوى

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ، وتحية طيبة من عند الله :

وبعـد :

فلقد أسعدتنى الظروف أن أقرأ من نتاجكم العلمى الغزير الطيب مؤلفكم « شبهات مزعومة حول القرآن وردها » الذى زدتم به عن حياض الدين ، ودافعتم فيه عن كتاب رب العالمين ، برد الشبه التى حاكتها قلوب مريضة ، وعقول سقيمة ، وأقلام مأجورة مسمومة ، سخرها أهل الزيغ والجهالة ، والإلحاد والضلالة ، وزودها وأعان عليها من استهواهم الغى الأعمى والهوى الأصم ، فهم ومن جرى فى ركابهم وسار على قدمهم قد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر ربهم ، وتركهم فى طغيانهم يعمهون . وصدق الله العظيم إذ يقول :

« فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنـا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » .

فما زلتم بهذه الشبه الزائفة تلاحقونها بالحجج الدامغة وتناهضونها بالبراهين القاطعة حتى كشفتم عن زيف الجاحدين القناع كما نزعتم عن وجه باطلهم اللثام . حين أوضحتم بساطع بيانكم بطلان ما هم عليه من جهل وإلحاد ، وزيف ما هم فيه من صلف وعناد . فإذا هو زاهق . . . ولله الحجة البالغة .

ولئن كانت لى كلمة من ثناء عليكم أو قول فى تقريظ مؤلفكم القيم . فإنى لا أجد فى ذلك خيراً من أن أسأل الله لك مزيداً من التوفيق إلى رد كيد الجاحدين ، ودفع شبه الملحدين ، وأن ينفعك وينفع بك . كما أسأله أن يجزى لك أجر جهادك ، وأن يغدق عليك من أنعمه كفاء ما قمت به من الدفاع عن دينه والذود عن قرآنه ، وأن يجعل ذلك لك ثقلا فى ميزان حسناتك إنه — سبحانه — أكرم من سئل وخير ما أعطى . وهو نعم المولى ونعم النصير . تولانا الله جميعاً بتوفيقه ، وهيأ لنا من أمرنا رشدا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم

محمد حافظ الدسوقى

أهم مراجع هذه الرسالة

١ — الاتقان للسيوطى

٢ — البرهان للزركشى

٣ — مناهل العرفان للزرقانى

٤ — غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى

٥ — تاريخ المصحف لعبد الفتاح القاضى

٦ — المدخل لعبد العزيز بن قارىء

٧ — القراءات فى نظر المستشرقين لعبد الفتاح القاضى

٨ — القول الصحيح فى الجواب على من يدل دين المسيح لابن تيمية

٩ — مقالات لبعض علماء الإسلام فى علوم القرآن

١٠ — تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار

١١ — تفسير الجواهر لطنطاوى جوهر

١٢ — تفسير فى ظلال القرآن للسيد قطب

١٣ — دلائل الاعجاز للجرجانى

١٤ — الاعجاز البيانى للقرآن للدكتورة بنت شاطىء

١٥ — اعجاز القرآن بين المعتزلة والاشاعرة

١٦ — تفسير المنار لرشيد رضا

١٧ — تفسير فتح القدير للشوكانى

١٨ — تفسير مجاهر د المحدث المقرىء

١٩ — الانتصار لنقل القرآن للباقلانى

٢٠ — المغنى للقاضى عبد الجبار

٢١ — الشيعة والسنة لإحسان الاهى باكستانى

فهرس الموضوعات

الخطبـــة :

مقدمة فى تعريف القرآن وتشتمل على ثلاثة أقسام

القسم الأول القرآن الكريم أنزل خاتمة للكتب السماوية ومهيمنا عليها ومصدقا لها

الثانى فى بيان أن القرآن الكريم هو أعظم معجزات النبى صلى الله عليه وسلم

الثالث : فى بيان دفاع العلماء عن حياض القرآن وتآليفهم فى ذلك

ثم ثلاثة أبواب والشبهات التى أثيرت فيها

الباب الأول : فى مصدر القرآن الكريم والشبهات التى أثيرت حوله

الباب الثانى : نظم القرآن الكريم وأسلوبه ومكيه ومدنيه وما أورد فيه من تهم

الباب الثالث : حول ثبوت نص القرآن وكتابة مصاحفه وإنكار الرافضة للأحرف السبعة وماأثير حول ذلك من شبهات والرد عليها

الخاتمـــة

للمــــؤلف

١ ــ البرهان فى تجويد القرآن ويليه رسالة فى فضائل القرآن مطبوع
٢ ــ طلائع البشر فى توجيه القرآن العشر مطبوع
٣ ــ شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها مطبوع
٤ ــ رسالة فى تفسير سورة المائدة مطبوع
٥ ــ قاموس غريب القرآن مطبوع
٦ ــ تهذيب وترتيب السجستانى فى غريب القرآن مرتب على سور القرآن
٧ ــ قلائد الفكر فى توجيه القراءات العشر
٨ ــ أحكام القرآن للجصاص تحقيق خمسة أجزاء مطبوع
٩ ــ تحقيق تفسير البيضاوى مطبوع
١٠ ــ « تفسير ابن عباس مطبوع
١١ ــ « إحياء علوم الدين لحجة الإسلام للإمام الغزالى مطبوع
١٢ ــ « تحبير التيسير فى القراءات السبع مطبوع
١٣ ــ « المقنع فى رسم مصاحف الأمصار لأبى عمرو الدانى
١٤ ــ كتاب معلم الصلاة للدارس مطبوع
١٥ ــ تحقيق تفسير الكشاف على رواية أبى عمر الدورى مطبوع
١٦ ــ تحت الطبع دلائل النصر فى شرح طيبة النشر فى القراءات العشر
١٧ ــ تحقيق تفسير الجلالين مطبوع
١٨ ــ « متن مورد الظمآن فى رسم وضبط القرآن مطبوع
١٩ ــ « ناظمة الزهر عد آى القرآن مطبوع
٢٠ ــ مذكرة فى علوم القرآن مطبوعة

تنـــويه

سقطت بعض الأخطاء المطبعية أثناء الطباعة، وهى
لا تخفى عن فطنة القارىء . . والله الموفق

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٣٨١ / ١٩٧٨

دار الأنوار للطباعة
١٩ شارع الجودرية تليفون ٩٠١٢٧٧